تجليات مصر وتشكلاتها

في رحلة ابن جبير (ت٦١٤هـ)

إعداد

د/ محمد رمضان عبد الوهاب عبد الوهاب

مدرس الأدب الأندلسي ـ قسم اللغة العربية ـ

كلية الآداب ـ جامعة المنيا

تجليات مصر وتشكلاتها في رحلة ابن جبير(ت٦١٤هـ)

محمد رمضان عبد الوهاب عبد الوهاب

قسم الأدب الأندلسي ، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة المنيا، مصر.

البريد الإلكتروني: mohmed.abdelwhab@mu.edu.eg

الملخص:

يحاول هذا البحث دراسة (تجليات مصر وتشكلاتها في رحلة ابن جبير ت٦١٤هـ) من خلال الوقوف على ملامح الحياة في مصر وما بها من إشارات جغرافية وسياسية واجتماعية ودينية واقتصادية وحضارية وفق مشاهدات الكاتب_ ابن جبير_ في رحلته الدينية وبالصورة الطولية التي انطلقت من مدينة غرناطة، وصولًا إلى مدينة الإسكندرية، ومنها إلى المدن المصرية حتى الوصول إلى مدينة عيذاب، ثم التبحر منها إلى أراضي الحجاز؛ لأداء فريضة الحج من ناحية، ثم معرفة تجليات مصر بمدنها المختلفة وحضورها في متن الرحلة الحكائي، فضلًا عن التشكلات الفنية والسردية داخل خطاب الرحلة من ناحية أخيرة؛ مما يتسنى لنا تكوين صورة كلية للمجتمع المصري في العصور الوسطى. وتزاوج الدراسة بين المنهج السردي والمنهج الفني ولكل موضعه داخلها. فتتوقف مع الرحلة كحكاية بما تضمنه من أحداث ومشاهدات، والرحلة كخطاب له آلياته السردية وخاصة المكان المتمثل في مصر، فضلًا عن التشكلات الفنية المتعددة لها. وتتوقف الدراسة مع تجليات مصر وتشكلاتها في رحلة ابن جبير من خلال ثلاثة مباحث أساسية؛ أولها: وصف مصر في رحلة ابن جبير، وثانيها: تجليات مصر في رحلة ابن جبير، وأخِرها: تشكلات مصر في رحلة ابن جبير.

الكلمات المفتاحية : التجليات، التشكلات، الرحلة، الوصف.

The presence and formations of Egypt on the trip of Ibn Jubair (d.614 AH)

Mohamed Ramadan Abdel-Wahab Abdel-Wahab
Lecturer of Andalusian Literature, Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Minia University, Egypt.
Email: mohmed.abdelwhab@mu.edu.eg

Abstract:
This research attempts to study (the presence and formations of Egypt in the journey of Ibn Jubair d.614 AH) by studying the features of life in Egypt and their geographical, political, social, religious, economic and cultural connotations according to the author's notes. Ibn Jubayr _ in his religious journey and the longitudinal description that started from the city of Granada,to reach the city of Alexandria, and from there to the Egyptian cities until reaching the city of Azab, then sail from there to the country of the Hijaz to perform the Hajj on one side, and then know the manifestations of Egypt through its multiple cities and its presence in the storytelling journey, as well as the use of artistic and narrative tools as part of the discourse trip, finally This enables us to form a comprehensive picture of Egyptian society in the Middle Ages.
The study deals with the presence of Egypt and its formations in Ibn Jubayr's journey through three basic topics: The first is: The description of Egypt in Ibn Jubair's journey, the second is: the presence of Egypt in Ibn Jubayr's journey, and the last is: The formations of Egypt in the journey of Ibn Jubayr.

Keywords: represented in presence, formation, journey, and description.

مقدمة

تُعَدّ الرحلة من أهم الأنواع الأدبية التي تقوم على التنقل والحركة، ومن ثم الوصف ورصد العديد من المشاهدات العينية والسماعية للعديد من الأماكن، وقد عرفت بلاد الأندلس العديد من الرحلات أشهرها رحلة ابن بطوطة ورحلة العبدري، ورحلة لسان الدين ابن الخطيب وغيرهم. ونتوقف بالدرس مع الرحلة بعدِّها من أهم روافد الأدب العربي؛ لما تحمله من جماليات فنية ولغوية، متجاوزين بذلك حدودها الجغرافية والتاريخية. ولعل " مسيرة قوافل الأندلسيين إلى مكة سنويًا لأداء فريضة الحج وزيارة القبر النبوي الشريف هي التي جعلتهم يولعون بالرحلة والأسفار في العالم الإسلامي وما وراءه من بلدان وشعوب"(١).

يحاول هذا البحث دراسة **(تجليات مصر وتشكلاتها في رحلة ابن جبير ت٦١٤هـ)** من خلال الوقوف على ملامح الحياة في مصر وما بها من إشارات جغرافية وسياسية واجتماعية ودينية واقتصادية وحضارية وفق مشاهدات الكاتب_ ابن جبير_ في رحلته الدينية، وبالصورة الطولية التي انطلقت من مدينة غرناطة، وصولًا إلى مدينة الإسكندرية، ومنها إلى المدن المصرية حتى الوصول إلى مدينة عيذاب، ثم التبحر منها إلى أراضي الحجاز؛ لأداء فريضة الحج من ناحية، ثم معرفة تجليات مصر بمدنها المختلفة، وكيفية حضورها في متن الرحلة الحكائي، فضلًا عن التشكلات الفنية والسردية داخل خطاب الرحلة من ناحية أخيرة؛ مما يتسنى لنا تكوين صورة كلية للمجتمع المصري في العصور الوسطى.

وقد تعددت **الدراسات السابقة** حول ابن جبير ورحلته بعدِّه مرحلة مهمة في التاريخ الأدبي للرحلات العربية والأندلسية منها: دراسة عبد

القدوس الأنصاري في كتابه (مع ابن جبير في رحلته)، فلم تتوقف دراسته هذه مع تجليات مصر في الرحلة وتشكلاتها الفنية والسردية، وإنما اكتفت برصد الأحداث وذكرها فقط. فأشارت لمصر بعدِّها مرحلة انتقالية في الرحلة ضمن فصولها المختلفة. ومن ثم جاءت تلخيصًا لكتاب رحلته. فعُدَّت دراسة وافية عن ابن جبير وثقافته ومنهجه في الشعر والنثر. أما بقيته فهو تلخيص لأهم فصول رحلة ابن جبير، والتعليق على بعض أحداثها. كذلك دراسة أحمد عبد الرازق خليل (جماليات المكان في رحلة ابن جبير)؛ تحدث فيها عن الطابع العام لرحلة ابن جبير، مبينا قيمتها في المصادر العربية، ثم توقف مع أشكال المكان في الرحلة بصورة موجزة، ومسهبًا الحديث عن بعض الشخصيات في المدن التي زارها مثل صلاح الدين، ونور الدين زنكي، والوليد بن عبد الملك وغيرهم. وعند التوقف مع المكان وتاريخه رصد المعالم في جزيرة صقلية وذكر مواقف أمهات المؤمنين عند الوقوف على ديارهن مثل السيدة خديجة، ومقبرة شهداء جبل أحد، وغيرها من المدن الحجازية، فضلًا عن الإشارات الموجزة لدورها الديني. ثم تطرق لتشكل المكان من خلال الوصف والسجع فنيًا فقط، وبصورة موجزة للغاية لا تتجاوز الصفحة الواحدة، ومن ثم ابتعدت دراسته جملة وتفصيلًا عن مصر وتجلياتها وتشكلاتها موضوع دراستنا. ومن الدراسات السابقة أيضًا دراسة نهلة عبد العزيز الشقران (رحلة ابن جبير دراسة تركيبية وصفية)، فقد توقفت مع الرحلة بالدرس اللغوي من حيث التراكيب للجملة بنوعيها، مع التحليل لألفاظ الجملة عند ابن جبير وتفسيرها. ومنها أيضًا دراسة نوال عبد الرحمن الشوابكة (أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، فقد عرضت بصورة طولية لرحلات ابن جبير الثلاث، وأهميتها التاريخية، والاجتماعية، فيما لا يتجاوز الصفحة، ضمن سلسلة الرحلات

التي عرفتها بلاد المغرب والأندلس. ومن الدراسات التي تناولت بعض الجوانب الفنية داخل الرحلة دراسة سيف محمد المحروقي وشفيق محمد(الحس الديني في رحلة ابن جبير)، فتتبعت الدراسة الحس الديني في رحلة ابن جبير، وعرض هذه المظاهر الدينيّة المتعددة، وتصوير الحياة الدينيّة في البلدان التي زارها، مع إبراز الوجه الاسلامي لهذه البلدان من: مساجد وقبور ومزارات، وتناولت بسطور لا تتجاوز العشرة سطور عن بعض مشاهدته في مصر مثل مساجد الإسكندرية، وصلاته للعيد في طنطا، فالدراسة رسمت _بصورة تفصيلية_ المعالم الدينية في المدن الحجازية على وجه التحديد، ولم تتوقف مع تجليات مصر وتشكلاتها في رحلته. ومثيلتها دراسة سيد مهدي مطبوق المنشورة في مجله آفاق الحضارة الإسلاميّة بعنوان (التمظهرات الدينية في رحله ابن جبير الأندلسي)، فقد اهتمت بالأوضاع الدينية، وتبيان الخطاب الغالب في الرحلة المتمثل في الخطاب الديني بكل تمظهراته وتجلياته، مرتكزًا على أوصاف ابن جبير في الحجاز فقط. ومن الدراسات الحديثة حول ابن جبير ورحلته دراسة محمد فارس الجميل (رحلة ابن جبير قراءة تصحيحية لبعض مشاهداته ابن جبير في مصر والحجاز والشام)، فتوقف الباحث مع بعض المغالطات التاريخية لمشاهدات ابن جبير، والتي رصدها في رحلته، وتصحيحها بالوثائق التاريخية سواء في مصر والحجاز والشام وغيرها. ومن جملة الدراسات الحضارية للرحلة دراسة ناميش دليلة (أدب الرحلة ودوره في التواصل بين الحضارات رحله ابن جبير نموذجًا) رسالة ماجستير بكلية الآداب واللغات جامعة أبي بكر بلقان تلمسان بالجزائر، فتوقفت مع الرحلة بعدِّها وسيلة للترابط بين الحضارات من خلال مظاهرها الدينية، والاجتماعية، والثقافية، وجميع النماذج المقدمة تقتصر على مدن الحجاز والشام وبغداد. أما دراستنا تركزت على تجليات مصر فقط

وتشكلاتها في رحلة ابن جبير؛ الأمر الذي أغفلته جميع الدراسات التي توقفت مع الرحلة وابن جبير.

أمَّا ما يخص **منهجية البحث؛** فتزاوج الدراسة في بين المنهج السردي والمنهج الفني ولكل موضعه داخلها. فتتوقف مع الرحلة كحكاية بما تضمنه من أحداث ومشاهدات، والرحلة كخطاب له آلياته السردية وخاصة المكان المتمثل في مصر، فضلًا عن التشكلات الفنية المتعددة لها. ويُعرَّف السرد بأنه نقل الحادثة من صورتها الواقعية إلى صورة لغويّة (٢). ونعني بالسردية في دراستنا "استنباط القواعد الداخلية للأجناس الأدبية واستخراج النظم التي تحكمها، وتوجه أبنيتها، وتحدد خصائصها، وسماتها، ووصفت بأنها نظام غني وخصيب بالبحث التجريبي، وهي تبحث في مكونات البنية السردية من راوٍ ومروي ومروي له، ولمَّا كانت بنية الخطاب السردي نسجًا قوامه تفاعل تلك المكونات، أمكن التأكد على أن السردية هي المبحث النقدي الذي يعنى بمظاهر الخطاب السردي أسلوب وبناء ودلالة"(٣). ونرتكز من خلال المنهج السردي على بعض أدواته المتمثلة في الأساليب السردية المختلفة، فضلًا عن التوقف التفصيلي لفضائية المكان، والذي يمثل الجغرافية الخلاقة في العمل الفني، فإذا كانت الرؤية السابقة له محددة باحتوائه على الأحداث الجارية، فهو الآن جزء من الحدث وخاضع خضوعًا كليًا له، فهو وسيلة لا غاية تشكيلية، ولكنها وسيلة فاعلة في الحدث وتاريخه(٤). ونظرا لطبيعة البحث؛ تسعى هذه الدراسة إلى رصد التقنيات السردية، والقوانين الداخلية لخطاب الرحلة، والتي ترتد في مجملها إلى التفرقة بين عالم السرد، وعالم الواقع التي أسهم بها الشكلانيون الروس، من خلال التمييز بين المتن الحكائي (أحداث الرحلة)، والمبني الحكاية (الآليات الخطابية السردية)،

والتي تتوقف مع تشكيل المكان المتمثل في مصر ومدنها، والآليات السردية المختلفة.

أمّا المنهج الفني فيعتمد على الرؤية المتمثلة في التجليات، والبحث عن الآليات الجمالية والتذوقية داخل النص الأدبي، ويقوم على "دراسة الشكل الفني المتناسق للعمل الفني، الذي يقوم بدوره المعادل الموضوعي لأحاسيس المتذوق، التي تعاد صياغتها من جديد في قالب جمالي متناسق، يضاعف من إدراك المتذوق لمعنى الوجود والجمال والحياة"(٥). ويرتكز الباحث من خلاله على دراسة التصوير الفني في رحلة ابن جبير، بعدِّه من أساسيات التشكيل، وأهم التشكلات داخل الرحلة، وركيزة أساسية اعتمد عليها ابن جبير في رحلته ليبتعد عن الوصف الجغرافي والبحث الاثنوجرافي البحت. وتُعرف الصورة الفنية بأنها "رسم قوامه الكلمات المشحون بالأحداث والعاطفة"(٦)، ونقتصر في دراستنا على الدرس البلاغي منها، معتمدين على ما ذكره إحسان عباس في أن الصورة جميع الأشكال المجازية(٧). وتتبع جماليات النص الفنية. فضلًا عن التناص الذي يعكس ثقافة الكاتب الإسلامية. ومن ثم ارتكزت الدراسة على خطاب الرحلة الذي يمثل "عملية تلفيظ لفعل الرحلة ويتماهى مع الرحلة وعوالمها، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية، فيبدأ من لحظة الخروج وينتهي لحظة العودة"(٨).

التعريف بابن جبير ورحلته

هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن عبد السلام الكنائي الشاطبي، بلنسي الأصل، غرناطي الاستيطان، كان جده عبد السلام بن جبير من أوائل طالعة بلج بن بشر عام ١٢٣هـ، وُلد في بلنسية عام ٥٣٩هـ كما قال لسان الدين بن الخطيب في إحاطته، وعام ٥٤٠هـ كما زعم المقري في نفحه، كان أديبًا

بارعًا، وشاعرًا جيدًا، كريم الأخلاق، أنيق الخط، روى عن أبيه وغيره من شيوخ عصره، امتهن بالكتابة في سبتة وغرناطة، وكان يتميز أدبيًا بالنظم الفائق، والنثر البديع، والكلام المرسل، والأغراض الجليلة. وكان يحب الترحال؛ كما كانت تجمعه مع أدباء عصره مخاطبات عدة؛ ظهرت فيها براعته وإجادته، توفي في مدينة الإسكندرية يوم الأربعاء من شعبان لعام٦١٤هـ.

ارتحل من الأندلس إلى المشرق ثلاثًا، وحج في كل واحدة منها، فالأولى في يوم الثامن من شوال عام ٥٧٨هـ، بصحبة أحمد بن حسان وعاد إلى غرناطة عام ٥٨١هـ. والثانية بعد فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين، إذ تحرك من غرناطة عام ٥٨٥هـ وعاد إليها عام ٥٨٧هـ، والثالثة بعد وفاة زوجته _عاتكة أم المجد_ ارتحل من سبتة إلى مكة وجاور بها طويلًا، ثم بيت المقدس، ثم تجول بمصر والإسكندرية، فأقام يحدث ويؤخذ عنه إلى أن لحق بربه. وسنتوقف بالدرس في بحثنا مع الرحلة الأولى المعروفة أدبيًا بـ **(تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار)**، طبعة دار صادر، بيروت. فيذكر المقري أن رحلته وغرضها الحج كفارة لشربه الخمر عند أبي سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة؛ حينما أرسل إليه ليكتب عنه كتابًا؛ فأقسم عليه باحتساء سبعة كؤوسًا من الخمر، وملأ له مكانها دنانيرًا، فأقسم أن ينفقها في البر، ويحج هذا العام تكفيرًا لخطيئته. ويقول ابن الخطيب في ذيوع رحلته: "ورحلته نسيجة وحدِها، طارت كل مطار"(٩). فهي رحلة عرضت الدراسات لقيمتها الجغرافية والتاريخية والاجتماعية؛ إذ إنها كنز بالمعلومات، بل هي خير ما أتى به شاهد عيان..."(١٠).

مصر وتاريخ وصفها وكمه في صفحات الرحلة

تبلغ صفحات الرحلة ٣١٤ صفحة منذ إقلاعه من مدينة غرناطة حتى العودة إليها. وقد ورد الحديث عن مصر في الرحلة بداية من الصفحة١٢ حتى صفحة ٤٩، أي ما يعادل ٣٨ صفحة، وذلك بعد الإقلاع من غرناطة ثم التبحر نحو هدفه المنشود وهو الحج، وتنحصر تاريخية الوصف لمصر في فترة الدولة الأيوبية، وسيطرة صلاح الدين على حكم مصر، ويدأ رصده من يوم السبت ٢٩ في القعدة عام ٥٧٨ هـ، لحظة وصوله للإسكندرية وحتى ٢٥ ربيع الأول ١٨ من يولية ١١٨٢م، بركوبه للعبور إلى جدة. وبالنظرة السريعة للموازنة بين مصر وغيرها في الرحلة جاءت قليلة نسبيًا إذا ما قورنت بمدن الحجاز وغيرها من المدن العربية مثل العراق بمدنها والشام. وتنحصر مصادر ابن جبير في جمع المعلومات عن مصر ومشاهداته في الرؤية والملاحظات الشخصية، والاعتماد أيضًا على السماع سواء أثناء وجوده في مصر أو من قبل، وفق تصريحاته في العديد من المواضع داخل الرحلة بجمل توحي بهذا السماع مثل (وذُكر لنا، وهو مشهور لكن لم نعاينه، صحت الأخبار عنهم.....) والتي تكررت كثيرا داخل الرحلة. ومن ثم تشكلت معلوماته التاريخية والحضارية عن مصر والمقدمة في رحلته.

ويمكن التوقف بالدراسة مع تجليات مصر وتشكلاتها في رحلة ابن جبير من خلال ثلاثة مباحث أساسية؛ **أولها: وصف مصر في رحلة ابن جبير، وثانيها: تجليات مصر في رحلة ابن جبير، وأخِرها: تشكلات مصر في رحلة ابن جبير. وذلك على النحو الآتي:**

المبحث الأول: وصف مصر في رحلة ابن جبير

تعد العلاقة بين الرحلة والعلوم المختلفة علاقة راسخة ووطيدة؛ لما تحمله من مادة علمية غنية في شتى المجالات من جغرافية واقتصاد وأدب وغيره، والكثير من المكاسب" التي يتعذر حصرها؛ بخاصة إذا كانت الرحلة متمتعة بقوة الملاحظة وشهوة التطلع ويقظة الحواس، وحب المحاورة والرغبة في التحصيل والحرص على التدوين والتسجيل"(١١).

شملت رحلة ابن جبير لمصر العديد من الأوصاف التي اطّلع عليها وشاهدها في المدن المصرية التي مر عليها أو استقر بها، وتنوعت هذه الأوصاف بين الوصف الجغرافي وشرح مناخية المكان، وكذلك الوصف الاجتماعي وما لاحظه على أهلها من تصرفات وعادات، وكذلك الوصف الحضاري الذي تمركز غالبًا في العمران والعلم، فضلًا عن الوصف السياسي والاقتصادي. لذا يعد المكان" حقيقة معاشة ويؤثر في البشر بنفس القدر الذي يؤثرون فيه فلا يوجد مكان فارغ أو سلبي. ويحمل المكان في طياته قيمًا تنتج من التنظيم المعماري، كما تنتج من التوظيف الاجتماعي، فيفرض كل مكان سلوكًا خاصًا على الناس الذين يلجون إليه. والطريقة التي يدرك بها المكان تضفي عليه دلالات خاصة"(١٢).

ويمكن الوقوف مع هذه الأوصاف وتقديم محاورها ومطالبها وما اشتملت عليه من أدبيات على النحو الآتي:

المطلب الأول: الوصف الجغرافي

احتوت رحلة ابن جبير بعض الإشارات الجغرافية التي رآها في المدن المصرية، أثناء رحلته، وتتعلق هذه الإشارات في المجمل باتساع المدن، وفيضانات النيل، وبعض الظواهر الكونية. فنجده يشيد بجغرافية مدينة الإسكندرية(١٣)؛ فيصفها بالبلد المتكاملة اتساعًا، حسنة المنظر، عالية المباني في قوله: " فأول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه، حتى إنا ما شاهدنا بلدًا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى وأعتق ولا أحفل منه"(١٤).

كما اعتمد ابن جبير في رحلته على الإجمال في وصف جغرافية مدينة دمنهور؛ بقربها من مدينة الإسكندرية، وبعدّها بلدًا مُسوَّرة، لها حمايتها الخاصة، فضلًا عن كونها أرضًا منبسطة وممهدة للزراعة حيث الحرث، وإغمار فيضانات نهر النيل فيها بقوله: "وهو بلد مُسور في بسيط من الأرض أفيح، متصل من الإسكندرية إليه إلى مصر، والبسيط كله محرث يعمه النيل بفيضه"(١٥).

كما تطرق ابن جبير في رحلته لوصف فيضان النيل والمتوقع حدوثه سنويًا ما بين شهري يونية، وأكتوبر، من خلال الإشارة السياسية لتدبير السلطان والمصريين واستعداداهم لهذا الأمر الجلل بشيء من الحضارة والتشييد والعمارة متمثلة في المقياس في قوله: " ويصل بهذا الجامع المقياس الذي يعتبر(يُعد) فيه قدر زيادة النيل عند فيضه كل سنة. واستشعار ابتدائه في شهر يونية، ومعظم انتهائه أغشت، آخره أول شهر أكتوبر"(١٦).

كما تحدث بشيء من الإجمال_ كعادته_ لسكون الريح في مدينة منية ابن الخصيب (المنيا)(١٧)؛ مما دفعهم لتربص الطريق، والإقامة فيها قليلًا بقوله:" ومنها الموضع المذكور بمنية ابن الخصيب، وهو بلد على شط النيل ميامنًا للصاعد فيه ... اجتزنا عليه ليلة الأحد الثالث عشر لمحرم المذكور، وهو الثامن من يوم إقلاعنا من مصر، لأن الريح سكنت عنا فتربصنا في الطريق"(١٨). كما أشار لقرب مدينة أسيوط(١٩) من النيل؛ الأمر الذي أضفى عليها جمالًا وخضرة، وتحديد جغرافيتها بشيء من التوضيح في قوله: "ومنها مدينة أسيوط، وهي من مدن الصعيد الشهيرة، بينها وبين الشط الغربي من النيل مقدار ثلاثة أميال، وهي جميلة المنظر(٢٠) ومقابلها بالشاطئ الشرقي من النيل مدينة دشنة(٢١).

ولم يقتصر الوصف الجغرافي عند هذا الحد؛ بل تطرق إلى بعض الظواهر الكونية التي حلت في رحلته مثل خسوف القمر الكلي في منطقة الحاجر(٢٢)، إلا إنه لم يذكر تفاصيله(٢٣).

وتناول ابن جبير الآبار في صعيد مصر بشيء من الاهتمام؛ نظرًا لمشقة الرحلة، فوصف بئر دنقاش بالعذب الذي ترد إليه الناس والأنعام ما لا يمكن إحصاؤه(٢٤)، كما وصف بئر شاغب بالماء الزُّعاق(المر الذي لا يطاق شربه لكثرة ملحه)، وقلته رغم قرب مائه بقوله:" وهذا الماء ثماد يحفر عليه في الأرض، فتسمح به قريبًا غير بعيد إلا أنه زعاق"(٢٥)، كما أشاد بماء أمتان وعذوبته وكثرته فضلًا عن بركته بقوله: " وهو بئر معينة قد خصها الله بالبركة، وهو أطيب مياه الطريق وأعذبها، فيلقي فيها من دلاء الوارد ما لا يحصى كثرة، فتروي القوافل النازلة عليها على كثرتها، وتروي من الإبل البعيدة الإظماء ما لو وردت نهرًا من الأنهار لأنضبته

وأنزفته"(٢٦)، وكذلك بئر الخبيب الذي يشبه الجب الكبير؛ لاتساعه، وبعد قعره بقوله: " فنزلنا ضحوة على ماء الخبيب، وهو بموضع بمرأ العين من عيذاب، يستقي منه القوافل وأهل البلد ويعم الجميع، وهي بئر كبيرة كأنها الجب الكبير(٢٧).

كما قدم وصفًا لرمال منطقة العشراء؛ وهي رملة لينة سهلة تتصل بساحل بحر جدة، كما أنها فيحاء منبسطة(٢٨)، وقدَّم وصفًا بليغًا لشجر العشر؛ وهو أجود أنواع شجر القدح في منطقة العشراء، كذلك المياه فيه، والتي تفتقر العذوبة الخالصة، فضلًا عن عدم وجود ما يحميها من الرمال والأتربة؛ الأمر الذي أدى إلى تغطيتها وردمها، ومن ثم إصابتهم بالعطش الشديد بقوله: " وبهذا الموضع كثير من شجر العشر، وهو شبيه بشجر الأترج لكن لا شوك له. وماء هذا الموضع ليس بخالص العذوبة، وهو في بئر غير مطوية، وألفينا الرمل قد انهال عليها وغطَّى ماءها، فرام الجمالون حفرها واستخراج مائها، فلم يقدروا على ذلك وبقيت القافلة لا ماء عندها(٢٩).

كما قدم وصفًا سريعًا لجغرافية مدينة عيذاب(٣٠) بعدِّها مدينة غير مُسوَّرة، تطل على ساحل بحر جدة(٣١). كما تطرق إلى مكانتها الجغرافية، ودورها في تسهيل وصول الحجاج بمأمن عن غيرها من المدن(٣٢). كما اعتمد ابن جبير على الإجمال والإضراب عن التفاصيل في وصف جغرافية بعض المدن ببعض الكلمات الموحية بالوصف مثل طنطا وبرمة وقليوب وغيرها.

المطلب الثاني: الوصف السياسي

شملت رحلة ابن جبير بعض الأمور السياسية التي تعرض لها، أو التمسها في رحلته لمصر، وإن تمثلت _في مجملها_ في السلطان وسياسته مع رعيته، فنجده يشيد بشيء من الإجمال دون تفصيل لبعض خصال حاكم مصر صلاح الدين الأيوبي(٣٣)، والتي تتمثل في العدل والإيثار، واعتماده على الرفق واللين في حكمه، والتسهيل على الرعية، في حديثه عمَّا رأوه من مشقة في الإسكندرية بقوله: " ولو علم بذلك على ما يؤثر عنه من العدل وإثار الرفق لأزال ذلك، وكفى المؤمنين تلك الخطة الشاقة، واستؤدوا الزكاة على أجمل الوجوه"(٣٤).

كما أظهر ابن جبير في رحلته اهتمام السلطان صلاح الدين بالأمور الحضارية والاجتماعية في مدينة الإسكندرية؛ إذ أشار إلى تعدد مدارسها للدارسين، وكذلك للزهاد، والمغتربين، والفقراء على حد سواء من جميع الأقطار، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل وضَّح سياسة السلطان في التعامل معهم على النحو الآتي: السماح للمغتربين من خارج مصر للدراسة فيها، لكل واحد منهم مسكنًا ومعلمًا يقوم بتعليمه الفن الذي يريده، يُصرف لهم راتبًا يعنيهم على تعلمهم، وقضاء حوائجهم، توفير بعض المرافق الحياتية من حمامات ومستشفيات لعلاجهم، وتوفير الأطباء لهم، فضلًا عن الخدم الذين يقومون على خدمتهم بقوله: " ومن مناقب هذا البلد ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية وإجراء يقوم به في جميع أحواله. واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها منى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانًا لعلاج من مرض منهم،

ووكَّل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم"(٣٥). ويدل هذا الصنيع إلى رشد السلطان صلاح الدين في سياسته مع رعيته وزواره من ناحية، واهتمامه بالعلوم خاصة الطب لحاجة الدولة إليه في ظل حروبه المستمرة مع الصليبين من ناحية أخرى، وكذلك إظهار عدله، وآداب السياسة السلطانية كما يجب أن يكون عليه الحاكم من ناحية أخيرة. ويشير الكاتب أنَّ الأمر لم يقتصر عند هذا الحد بل وصل لصرف الخبز إليهم، وإغداق الأموال عليهم من نفقته الخاصة، وإغراء عُمَّاله بالإنفاق عليهم(٣٦).

بل اتخذ من مسجد ابن طولون مسكنًا لغرباء المغرب يبيتون فيه، وفيه يتعلمون علومهم، ويغدق عليهم من أمواله الخاصة، وأسند إليهم أمورهم السياسية والتعاملية؛ فلا حاكم عليهم إلا منهم بقوله: " وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير المنسوب إلى أبي العباس أحمد بن طولون... جعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق كل شهر.."(٣٧).

كما قدمه بالمتفقد دائمًا لرعيته والمعتني بشئونهم، خاصة في مرضهم وفي مضاجعهم والإشراف على ذلك بنفسه، مزاوجًا بين السؤال والبحث والزيارة بقوله: " والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال، ويؤكد في الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكيد"(٣٨).

كما شملت سياسته جميع المؤسسات المصرية من مساجد وقبور ومدارس ومستشفيات، وكذلك القناطر الخيرية غربي مصر، والتي تُعدُّ من أفضل آثاره السياسية؛ إذ اتخذها ملجأً حين تضيق عليه السبل والتقلبات

السياسية، فضلًا عن اهتمامه بتعليم القرآن الكريم خاصة لأبناء الفقراء والأيتام(٣٩).

كما أشار الكاتب إلى سياسة السلطان صلاح الدين في تخفيفه العبء عن الحجاج؛ لإزالته الضرائب المفروضة عليهم أيام العبديين (الدولة الفاطمية)، الذين كانوا يضطهدونهم، وكذلك فرض الطعام إليهم بدلًا منها، وتعيينه مجزي يقوم على خدمتهم، وتوصيلهم لبلاد الحجاز، فضلًا عن محو الضرائب الباهظة التي كانت تضرب على كل ما يباع، ويشترى بقوله:" ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة... إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبديين. فكان الحجاج يلاقون من الضغط في استيدائها عنتًا مجحفًا ويسامون فيها خطة خسف باهظة... فمحا هذا السلطان هذا الرسم اللعين ودفع عوضًا منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها، وعين مجبيً موضع معين بأسره لذلك، وتكفل بتوصيل جميع ذلك إلى الحجاز.."(٤٠).

كما استهجن ابن جبير في بداية رحلته أمر عمال الضرائب من أمناء المراكب؛ لِما أنزلوه من تفتيش للناس، وفرض الضرائب عليهم، على الرغم من أنهم لم يحملوا سوى زوادهم، واصفًا مشهدهم بالذل والخزي العظيم من ناحية، وعدم دراية السلطان بذلك من ناحية أخيرة؛ الأمر الذي أصاب الرحلة بالزحام والفوضى، وألبست الأشياء في بعضها، وإن عكس هذا الأمر حرص مصر على سواحلها وحدودها بتقيد أسماء زوارها وأسباب زيارتهم، وإغفال السلطان لمثل هذه الأمور على الرغم من اهتمامه بالغرباء داخل مصر، وإن لم يصرح بذلك إجلالًا لعظمته ومآثره(٤١). ويستنكر الكاتب سياسيًا تدخل أبناء الصعيد في مراكب المسافرين، وتفتيشها وتكشفها، فضلًا

عن تدخلهم في شئون التجار؛ بغرض الزكاة المفروضة دون مراعاة لحدودها، معللًا بأن السلطان لا يعلم بهذه الأمور، وإن حملت مقولته _كما سبق القول_ التبرئة ظاهريًا، فإنها تحمل في باطنها الغفلة إداريًا(٤٢).

المطلب الثالث: الوصف الاجتماعي

احتوت رحلة ابن جبير الخاصة بالمدن المصرية بعض التلميحات الاجتماعية المتمثلة في عادات المصريين وتقاليدهم؛ فقد أشاد برفاهية أهل الإسكندرية، وميسورية أحوالهم؛ الأمر الذي يجعلهم يعزفون عن شغل الوظائف، وإن كان يرجعها إلى السلطان، وهباته الكثيرة تلميحًا بقوله: " وأما أهل بلده ففي نهاية من الترفيه واتساع الأحوال لا يلزمهم وظيفة البتة"(٤٣)، ويشيد برفاهية ونزهة أهل الجيزة(٤٤). كما تعجب من كثرة سهرهم ليلًا، وكأنه نهارًا لارتياحهم بقوله: " ومن الغريب أيضًا في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار في جميع أحوالهم"(٤٥). وكذلك قوله: "لا يخلعون لباس الليل تصرفًا فيما يعنيهم، ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم"(٤٦).

كما أشاد الكاتب بالناحية التعليمية، وعراقة مدينة الإسكندرية صاحبة رياسة العلم، بشيء من الإجمال متمثلة في سكنى الفلاسفة موطنها بقوله: "وذكر لنا أنه كان عليها في القديم مبانٍ للفلاسفة خاصة ولأهل الرئاسة في ذلك الزمان"(٤٧).

كما أشاد ابن جبير بتجمع أهالي مدينة طندتة(٤٨) خاصة يوم الجمعة، وهي من العادات المألوفة حتى الآن في المدن المصرية، فضلًا عن إعجابه بفصاحة خطيبها وبلاغته، وإفصاح خطبته عن مدى علمه وتدينه بقوله: "فشاهدنا الصلاة بموضع يُعرف بطندتة، وهي من القرى

الفسيحة الآهلة، فأبصرنا بها مجمعًا حفيلًا، وخطب الخطيب بخطبة بليغة جامعة"(٤٩). كما أشاد بوصف خطيب الجمعة في أحد المساجد المصرية، باعتياده الدعاء للصحابة والتابعين وأمهات المؤمنين، مزاوجًا بين الوعظ والرفق، ويمتطي سيفه، ويرتدى الوشاح الأسود، والعمامة السوداء، متشبهًا بالعباسيين(٥٠).

كما تطرق ابن جبير لبعض عادات المصريين قديمًا_ ولا تزال_ والتي تُعد من ملامح الشخصية المصرية في العصور الوسطى؛ متمثلة في التبرك بالمقامات وأضرحة الأولياء والطوفان حولها، والانكباب عليها، خاصة زوار مسجد الحسين، وقبره الشريف _رضي الله عنه_بقوله: " وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك وإحداقهم به وانكبابهم عليه، وتمسحهم بكسوته، وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه وتعالي ببركة التربة المقدسة ومتضرعين ما يذيب الأكباد ويصدع الجماد"(٥١)، كما أشاد بسكان القرافة الذين يعملون على حفظها وتقديسها(٥٢). فمن الملاحظ في الوصف الاجتماعي أن ابن جبير لم يقدم في رحلته إلى مصر احتكاكًا صريحًا بأهلها وشخصياتها، وإنما اكتفى فقط بالزيارة والمشاهدة والسعي نحو هدفه المنشود، اللهم إلا بعض الشخصيات أمثال نجم الدين الخبوشاني متملثة(٥٣) في قوله: " ولم نلق من رجال مصر سواه"(٥٤).

كما أشار في حديثه عن خصال صلاح الدين باهتمام المصريين بحفظ كتاب الله خاصة أبناء الفقراء والأيتام(٥٥). وربما يشير الكاتب إلى مذهب المصريين، وخاصة الإسكندرية في مسجد عمرو بن العاص المتمثل في المذهب المالكي بقوله: "وبمدينة مصر المسجد الجامع المنسوب لعمرو

بن العاص رضي الله عنه. وله أيضًا بالإسكندرية جامع آخر وهو مصلى الجمعة للمالكيين"(٥٦).

كما أشاد ابن جبير بعفة نساء مدينتي قنا ودشنة، والتزامهن البيوت، متضامنًا النص القرآني﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ**﴾(٥٧)، حتى أنه لم ير امرأة قط، بقوله: "ومن مآثرها المأثورة صون نساء أهلها والتزامهن البيوت، فلا تظهر في زقاق من أزقتها امرأة البتة، صحت بذلك الأخبار عنهن، وكذلك نساء دشنة"(٥٨).

كما لمح ابن جبير إلى أمانة المصريين خاصة في منطقة أمتان على طريق عيذاب؛ إذ إن الفلفل والسلع المصرية مطروحة على الطريق دون حراسة، وتبقى مصونة حتى تُحمل من قبل أصحابها دون نقص أو سطو عليها، على الرغم من كثرة المارة بقوله: "ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقي بقاعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائر السلع مطروحة لا حارس لها تترك .. وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المارة عليها من أطوار الناس"(٥٩).

كما أشار إلى رفاهية أهالي مدينة عيذاب، وكثرة أموالهم؛ وتعدد ثيابهم؛ لاعتمادهم على ضريبة حمل الأشياء من الحجاج والتجار من ناحية، وضرائب المكوس أيام العبديين قبل إلغاء صلاح الدين لها من ناحية أخرى، فضلًا عن مراكبهم التي يمتلكونها، وترافق الحجاج من ناحية أخيرة(٦٠). وعلى الرغم من ذلك وصفهم بأنهم يعيشون عيشة غير آدمية، تشبه عيشة البهائم، وأنهم أقرب إلى الوحوش، في بلد تعتمد فقط على كل ما هو مجلوب بقوله:" لكنهم ببلدة لا رطب فيها ولا يابس قد ألفوا بها عيش البهائم، فسبحان

محبب الأوطان إلى أهلها، على أنهم أقرب إلى الوحش منهم إلى الإنس"(٦١).

كما استنكر الكاتب صنيع مالكي الجلاب في مدينة عيذاب؛ وذلك لإصرارهم على شحن مراكبهم بالعدد الكبير الذي يفوق حملها، مبالغًا في وصفه بأنها تأتي بثمنها في شحنة واحدة، مع عدم مبالاة أصحابها بأهوال البحر ومخاطره، داعيًا السلطان بضرورة النظر فيها، والإشراف عليها بقوله :" ولأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت، وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كأنها أقفاص الدجاج المملوءة، يحمل أهلها على ذلك الحرص والرغبة في الكراء حتى يستوفي صاحب الجلبة منهم ثمنها في طريق واحدة ولا يبالي بما يصنع البحر بها بعد ذلك.. فأحق بلاد الله بحسبة يكون السيف درتها هذه البلدة"(٦٢).

كما استهجن الكاتب سكان المدينة من البجاة السودانيين(٦٣)، الذي يولون سلطانًا لهم من أنفسهم، ووصفهم بالعديد من الصفات الذميمة فهم أضل من الأنعام، وقليلي العقل، لا يعرفون من الدين سوى ظاهره؛ المتمثل في توحيد اللسان بقوله: "وهذه الفرقة من السودان المذكورين فرقة أضل من الأنعام سبيلًا وأقل عقولًا، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها إظهارًا للإسلام، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يرضى ولا يحل"(٦٤). فضلًا عن عري رجالهم ونسائهم على حد سواء فمنهم من يتستر ببعض الخرق فوق عوراتهم، والأكثر لا يتسترون بقوله: " ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة إلا خرقًا يسترون بها عوراتهم، وأكثرهم لا يسترون. وبالجملة فهم أمة لا خلاق لهم، ولا جناح على لاعنهم"(٦٥). فالكاتب يشير إلى رديء أخلاقهم، فضلًا عن ذمه دينهم وتصرفاتهم.

فمن الملاحظ اهتمام الكاتب كثيرًا بالناحية الدينية في الوصف الاجتماعي، مقللًا الذكر عن العادات والتقاليد، وأوصاف الزي، والمأكل والمشرب، وغيرها من ناحية، ورابطًا هذه الأوصاف بالسلطان من ناحية أخيرة.

المطلب الرابع: الوصف المعماري

اهتم ابن جبير في رحلته بوصف بعض المعالم الحضارية والمعمارية في المدن المصرية، فنجده يشيد بالجانب الحضاري لمدينة الإسكندرية خاصة في بنائها المتين؛ واختراق النيل لضواحيها، فضلًا عن اتصال آبارها، ومبانيها المرتفعة التي تزاحم الفضاء، مما لا يتخيله عقل بقوله: " فأول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه، حتى إنا ما شاهدا بلدًا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق و أحفل منه.. ومن العجب في وصفه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن؛ لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض فتتصل البار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضًا"(٦٦).

وقد اعتمد ابن جبير في رحلته على الوصف المعماري الدقيق وبشيء من التفصيل لبعض المنشئات، والوصف الموجز السريع لبعضها الآخر، فنجده يجلل بالتفصيل عظم بناء منار الإسكندرية(٦٧) متضمنًا النص القرآني في قوله ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾(٦٨)، وهداية لكل مسافر، إذ به تُعرف مصر لكل ضال في البحر، فضلًا عن عراقته، واتساع طوله وعرضه بقوله:" ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذي وضعه الله عز وجل على يدي من سخر لذلك آية للمتوسمين وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى بر الإسكندرية، يظهر على أزيد من

سبعين ميلًا. ومبناه في غاية العتاقة والوثاقة طولًا وعرضًا، يزاحم الجو سموًا وارتفاعًا، يقصر عنه الوصف، وينحسر دونه الطرف"(٦٩). ثم يعمد الكاتب لوصفه وصفًا دقيقًا يدلل على حضارته؛ فيبلغ طوله مائة وخمسين مترًا، يتميز بجوانب أربعة، ومعارج كثيرة، لاسيما المساكن فيه، والمداخل المتعددة التي تحير زائريها من كثرتها. ولعل ما يعكس اتساعه احتواءه مسجدًا كبيرًا له موروث شعبي عند أهاليهم بالتبرك للصلاة فيه، ضاربًا الذكر عن وصفه بشيء من التفصيل بقوله: " ذرعنا أحد جوانبه الأربعة فألفينا فيه نيفًا وخمسين باعًا. ويذكر أن في طوله أزيد من مئة وخمسين قامة. وأما داخله فمرأى هائل، اتساع معرج ومداخل وكثرة مساكن، حتى أن المتصرف يه والوالج في مسالكها ربما ضلّ... وفي أعلاه مسجد موصوف بالبركة يتبرك لناس بالصلاة فيه... وشاهدنا من شأن مبناه عجبًا لا يستوفيه وصف واصف"(٧٠).

ويشيد ابن جبير بكثرة مساجد مدينة الإسكندرية التي تفوق اثني عشر ألف مسجدًا بين مقلل ومكثر؛ الأمر الذي يعكس حضارتها الدينية، وإن كان يقدم الرؤية الحضارية من منظور سياسي بقوله: " وهي أكثر بلاد الله مساجد، حتى إن تقدر الناس لها يطفف، فمنهم المكثر والمقلل، فالمكثر ينتهي تقديره إلى اثني عشر ألف مسجد، والمقلل ما دون ذلك لا ينضبط.. وبالجملة فهي كثيرة جدًا تكون منها الأربعة والخمسة في موضع وربما كانت مركبة، وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان.. وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان"(٧١).

ويشيد الكاتب بشيء من التفصيل والتأنق والاستغراب لآثار القاهرة والمشاهد المباركة مثل قبر الإمام الحسين _رضي الله عنه_ وتطريزه

بالديباج والفضة والذهب؛ مما يصيب الذهول في وصفه على حد قوله: "فمن ذلك المشهد العظيم الشأن بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، وهو في تابوت فضة مدفون تحت الأرض قد بني عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه ولا يحيط الإدراك به، مجلل بأنواع الديباج، محفوف بأمثال العمد الكبار شمعًا أبيض ومنه ما هو دون ذلك، قد وضع أكثرها في أتوار فضة خالصة ومنها مذهبة، وعلقت عليه قناديل فضة، وحف أعلاه كله بأمثال التفافيح ذهبًا في مصنع شبيه الروضة يقيد الأبصار حسنًا وجمالًا، فيه من أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع ما يتخيله المتخيلون ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون"(٧٢). كما أبدع في وصف عمارة مسجده_الحسين_ متعجبًا من بديع صنعته؛ إذ إن حيطانه رخام، وأحجاره مباركة شبيهة المرآة الهندية الحديثة، فاصلًا القول بأنه لا يوجد في الكون أحفل منه بقوله: " والمدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها في التأنق والغرابة، حيطانه كلها رخام عل الصفة المذكورة، وعلى يمين الروضة المذكورة وشمالها بيتان من كليهما المحل إليها وهما أيضًا على تلك الصفة بعينها، والأستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع. ومن أعجب ما شاهدناه في دخولنا إلى هذا المسجد المبارك حجر موضوع في الجدار الذي يستقبله الداخل شديد السواد والبصيص، يصف الأشخاص كلّها كأنه المرآة الهندية الحديثة الصقل"(٧٣).

كما تطرق ابن جبير في رحلته لوصف قلعة القاهرة(٧٤) وتبيان مكانتها السياسية؛ إذ يتخذها السلطان صلاح الدين موضعا لمقامه، ومقرًا لحكمه، وكذلك مكانتها الحضارية المترتبة على مكانتها السياسية لما تحويه من حصون منيعة، وأسوار عظيمة، والخنادق العديدة، ومظاهر الرقي فيها

من خدم وغيرها بقوله: "وشاهدنا أيضًا بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين المنعة، يريد السلطان أن يتخذه موضع سكناه، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة. والمسخرون في هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومؤونته العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور العظام وحفر الخنادق المحدق بسور الحصن المذكور، وهو خندق ينقر بالمعاول نقرًا في الصخر عجبًا من العجائب الباقية الآثار، العلوج الأسارى من الروم، وعددهم لا يحصى كثرة، ولا سبيل أن يمتهن في ذلك البنيان أحد سواهم"(٧٥).

كما قدم ابن جبير وصفًا حضاريًا لمصر متمثلة في المارستان (المستشفي) الذي يدلل على اهتمام السلطان برعيته، فيقسمه ثلاثة أقسام؛ قسم يضم المرضى الرجال، ومثله لمرضى النساء، وأخرهم للمجانين، وفي كل واحد منهم تتوافر الأدوية والعقاقير اللازمة، والأَسرَّة المتعددة ومن يقوم على خدمتهم، فضلًا عن الطعام والشراب المصروف لهم(٧٦).

كما تطرق بوصفه المفصل لأهرامات الجيزة الثلاثة من حيث بناؤها، فيراها غريبة الشكل، مربعة الهيئة، مرتفعة تعانق السماء سموًا وشموخًا، تتكون من الصخور الكبيرة، متعجبًا من تركيبها دون ما يساعد على إلصاقها، ومما يثير دهشته أنها لا يمكن أن تهدم، حتى لو أجمع عليها أهل الأرض جميعهم بقوله: " وبمقربة من هذه القنطرة المحدثة الأهرام القديمة، لمعجزة البناء، الغريبة المنظر، المربعة الشكل، كأنها القباب المضروبة قد قامت في جو السماء، ولاسيما الاثنان منها، فإنهما يغض الجو بهما سموًا، في سعة الواحد منها من أحد أركانه إلى الركن الثاني ثلاث مئة خطوة وست وستون خطوة. قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة، وركبت تركيبًا هائلًا

بديع الإلصاق دون أن يتخللها ما يعين على إلصاقها، محددة الأطراف في رأي العين.."(٧٧)، ثم يعمد إلى الوصف التفصيلي إلى سعتهم وعلى ما بداخلهم من بيوت ورخام، ثم الحديث عن أبي الهول ووصفه(٧٨).

وكذلك وصفه التفصيلي المطول للهيكل العظيم في مدينتي إخميم، ودندرة وما يحويانه من آثار بنيان للقبط، وكنائس معمورة، فضلًا عن الرسوم والتصاوير بداخلهما، واتساعهما؛ فيحويان العديد من المجالس، والمداخل والمخارج، والزوايا والمعارج، والمسارح والموالج؛ الأمر الذي يصيب التوه، مما يجعلهم من عجائب الدنيا، ويصعب الإلمام بوصفهما على حد قوله(٧٩).

ومن الإشارات الحضارية السريعة في رحلته إشادته بالمسجد الجامع بمدينة قليوب(٨٠)، وهو حفيل البنيان(٨١). كذلك في وصفه للقرافة في مدينة القاهرة، فبعد أن ذكر سكانها من الشخصيات الدينية والتاريخية من الأنبياء، وأهل البيت والصالحين، اعتمد على الوصف المجمل بأنها روضات بديعة الإتقان، عجيبة البنيان، بها العديد من المساجد والمشاهد الأثرية العظيمة؛ الأمر الذي يوحي بأن عمارة مصر وحضارتها شملت جميع المؤسسات، والمنشآت بما فيها قبورهم(٨٢).

كما أشاد بمدرسة الإمام الشافعي بجوار ضريحه، والتي يراها من عجائب الدنيا التي لم ير مثلها قط؛ لروعة بنيانها وشدة جمالها، فضلًا عن اتساعها الذي يجعلها مستقلة بذاتها، وإن رجع ذلك إلى السلطان واهتمامه بها بقوله: "مشهد الإمام الشافعي رضي الله عنه، وهو من المشاهد العظيمة احتفالًا واتساعًا، وبني بإزائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء، يُخيَّل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته، بإزائها

الحمام، إلى غير ذلك من مرافقها، والبناء فيها حتى الساعة، والنفقة عليها لا تحصى"(٨٣)، وإشارته لمسجد ابن طولون العتيق، واسع البنيان، ومأوى الغرباء من المغاربة(٨٤).

كذلك إشارته السريعة لسجن سيدنا يوسف، واصفًا إياه بحصن حصين المنعة(٨٥)، كما أشاد بعمارة مدينة المنيا(منية ابن الخصيب)، واتساعها وكثرة المرافق، والأسواق، والحمامات فيها(٨٦)، وكذلك مدينة (قفط) حيث بنيانها النظيف، ودقة إتقانه دون تفصيل لذلك(٨٧). ويشيد برصيف منطقة منشأة السودان بصعيد مصر، فيراه حاميًا لها من فيضانات النيل، عند فيضه ومده، وبسببه فهي في مأمن دائم(٨٨).

فمن الملاحظ أن الكاتب دائما ما يرجع عظم الحضارة المعمارية في مصر إلى السلطان صلاح الدين بقوله: "ومما شاهدناه أيضًا من مفاخر هذا السلطان المارستان.."(٨٩).

المطلب الخامس: الوصف الاقتصادي

لم يهمل ابن جبير في رحلته الإشارة إلى بعض الجوانب الاقتصادية في مصر ومدنها، وجاءت متزاوجة بين المدح والإشادة، والقدح والاستهجان، فنجده يستنكر _في بداية رحلته_ الضرائب الباهظة التي تُفرض على الحجاج من قِبَل عمالها، ولم يكن السلطان على دراية بها(٩٠)، كذلك في مدحه لسياسة السلطان صلاح الدين في إزالته رسم المكس أيام العبديين، تطرق للضريبة التي كانت تُفرض على الحجاج المقدرة بسبعة دنانير ونصف مصريًا، والتي تعادل " خمسة عشر دينارًا مؤمنية على كل رأس"(٩١).

كما تطرق ابن جبير في رحلته للوصف الاقتصادي في مصر خاصة فما يتعلق بالرواتب، والعمال والموظفين القائمين على المساجد والضرائب والقبور فيذكر قوله: "ومن العجب أن القرافة المذكورة كلها مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوي إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء، والإجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان في كل شهر، والمدارس التي بمصر والقاهرة كذلك، وحقق عندنا أن الإجراء على ذلك كله نيف على ألفي دينار مصرية في الشهر، وهي أربعة آلاف دينار مؤمنية"(٩٢)، وكذلك ميزانية مسجد عمرو بن العاص التي تفوق الثلاثين دينارًا في اليوم الواحد متفرقة ما بين رواتب الأئمة والقائمين عليه وغيرهم(٩٣).

كما أشار الكاتب إلى كثرة الأسواق في المدن المصرية، خاصة مدينة الجيزة، التي يجتمع فيها الناس من كل حدب بقوله: "لها كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة يجتمع إليها. ويعرض بيها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسان وعلالي مشرفة وهي مجتمع اللهو والزينة"(٩٤).

كما تطرق للجباية والخراج في حديثه عن فيضان النيل، محددًا نصاب السلطان صلاح الدين فيه، شريطة اكتماله على ما يفوق ست عشرة ذراع بقوله: "والذي يستحق به السلطان خراجه في بلاد مصر ست عشرة ذراعًا فصاعدًا، وعليها يعطي البشارة الذي يراعي الزيادة في كل يوم والزيادة في أقسام الذراع المذكورة ويُعلم بها مياومة حتى تستوفي الغاية التي يقضى بها. وإن قصرت عن ست عشرة ذراعًا فلا مجبى للسلطان في ذلك العام ولا خراج"(٩٥).

كما أشار الكاتب إلى اقتصاد مدينة منفلوط الذي يقوم على زراعة القمح، رزين الحب فضلًا عن عَدِّها مركزًا تجاريًا منها وإليها يفد التجار

بقوله:" وهي بلدة في نهاية من الطيب ليس في الصعيد مثلها، وقمحها يجلب إلى مصر لطيبه ورزانة حبته، قد اشتهر عندهم بذلك، فالتجار يصعدون في المراكب لاستجلابه"(٩٦)، كما أشاد بكثرة الرطب في مدينة دندرة لكثرة نخيلها(٩٧). كما قدم الكاتب وصفًا حفيلًا لاقتصاد مدينة قوص التي تعتمد على تجارة الصادرات والواردات؛ لذلك فهي كثيرة الأسواق، ومتسعة المرافق، فضلًا عن كثرة زوارها من الحجاج والتجار من شتى الأجناس خاصة اليمنيين، والهنديين، والأحباش فهي" محط للرجال ومجتمع الرفاق، وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم"(٩٨)، كذلك موضع المبرز(٩٩) كثير النخيل، وعليه يجتمع التجار ومنه يرحلون، واعتماده على الأوزان لكل من يريد أن يزن بضاعته وحاجته(١٠٠)، ومنطقة العبدين وصحرائها؛ حيث القوافل العيذابية والقوصية الصادرة والواردة؛ مما يدلل على كثرة التجار ومواردها الداخلة والخارجة(١٠١).

كما أشاد بكثرة التجارة المتمثلة في القوافل الصادرة والواردة في طريقه إلى مدينة عيذاب، وبالتحديد في منطقة أمتان، فهي لا تكاد تُعد ولا تُحصى، خاصة الفلفل الملقى على الطريق دون حراسة لكثرته بقوله:" ورمنا في هذه الطريق إحصاء القوافل الواردة والصادرة فما تمكن لنا، ولاسيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع الهند الواصلة إلى اليمن، ثم من اليمن إلى عيذاب. وأكثر ما شاهدناه من ذلك أحمال الفلفل، فلقد خُيل إلينا لكثرته أنه يوازي التراب قيمة"(١٠٢)، فضلًا عن مراكب الحجاج، والتجار الصادرة والواردة في مدينة عيذاب، التي تعتمد على التجارة فقط، فلا نبات فيها، وكل ما فيها مجلوب من خارجها بقوله:" وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائدًا إلى مراكب الحجاج الصادرة

والـواردة، وهـي فـي صـحراء لا نبـات فيهـا ولا يؤكـل فيهـا شـيء إلا مجلوب"(١٠٣).

كما أشار إلى كثرة الجواهر النفيسة في بحرها، خاصة في شهري يونية ويوليو بقوله: " وفي بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها، وأوان الغوص عليه في هذا التاريخ المقيدة فيه هذه الأحرف، وهو شهر يونية العجمي والشهر الذي يتلوه، ويستخرج منه جوهر نفيس، له قيمة سنية، يذهب الغائصون عليه إلى تلك الجزائر في الزوارق ويقيمون فيها الأيام فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق"(١٠٤).

المبحث الثاني: تجليات مصر في رحلة ابن جبير

استحضر ابن جبير في رحلته بعض متعلقات المكان المتمثل في مصر ومدنها، والتي تمثلت في شخصياته، وتاريخيته، وبعض الأمور الدينية، فضلًا عن الخرافات والعجائب التي لازمته. وذلك على النحو الآتي:

المطلب الأول: تجليات الشخصية المصرية

يُعد المكان المسرح الأوَّل للشخصيات والأحداث، كما أن الشخصية هي التي تحرك المكان، ومن ثم لابد من الوقوف مع العلاقة المترابطة والمقترنة بين المكان (المتمثل في مصر)، وشخصياته التي تتحرك في إطاره، وتتفاعل معه، وتؤثر فيه وتتأثر منه، وبذلك " يتحول المكان من مجرد إطار أو أرضية إلى عنصر مشارك في العمل الأدبي وإلى واحد من أبطاله بل إنه قد يصبح البطل الأول أو الأساسي"(١٠٥)؛ فوصف الشخصية يُقدم من خلال حركتها في المكان، وانعكاس ما يجري فيه، ويلعب الوصف دورًا كبيرًا في تقديم الصراع الخفي بين المكان ومن يعيشون فيه(١٠٦). فالمكان يعكس حقيقة الشخصية، ومن جانب أخر إن حياة الشخصية تفسرها طبيعة المكان الذي يرتبط بها(١٠٧). ونظرًا لارتباط المكان بشخصياته؛ نجد ابن جبير يستحضر شخصية صلاح الدين الأيوبي، وتجليه في تشكيل المكان من خلال مآثره فيه، وأفضاله، فتتجلى الشخصية المحبة للعلم؛ إذ يرجع إليه بناء المدارس ومساكن الدارسين، والزهاد من محارس ومستشفيات، فلولاه ما وفد الغرباء إلى مصر للتعلم بقوله:" ومن مناقب هذا السلطان ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطب والتعبد، يفدون من الأقطار النائية فيلقي كل واحد منهم مسكنًا يأوي إليه، ومدرسًا يعلمه الفن الذي يريد

تعلمه... واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستانًا لعلاج من مرض منهم..."(١٠٨). فمن الملاحظ سيطرة شخصية صلاح الدين على معظم أوصاف المكان ومعالمه، فالكاتب يقدم المكان من خلال عيون السلطة السياسية.

كما تجلت الشخصية تجليًا دينيًا متمثلة في اعتناء صلاح الدين الأيوبي بالمساجد في مدينة الإسكندرية التي تفوق اثني عشر ألف مسجد، حتى قيل إن بالمكان الواحد بالأربعة والخمسة مساجد، ويغدق عليها من الأموال والرواتب بقوله: " وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان. إلى غير ذلك مما يطول ذكره من المآثر التي يضيق عنها الحصر"(١٠٩).

كذلك تتجلي الشخصية في الاهتمام بالتعمير والإنشاء من مثل المارستانات، وتعيين الأطباء المهرة، وتوفير العقاقير، والأسرّة، ومن يعتني بالمرضى، وتفقد السلطان للمكان (المارستان) بنفسه، ومن ثم فتأثير الشخصية(صلاح الدين) على المكان من الناحية الصحية جزء من سياسة الحكم وتدابير السلطة(١١٠). بل يرى ابن جبير أن شخصية السلطان وسياسته تعتني عناية فائقة بجميع المؤسسات الحيوية في شتى البلدان المصرية، وله اليد العليا فيها بقوله: "وما منها من جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوي إليها ويلزم السكنى فيها، تهون عليه في ذلك نفقات بيوت الأموال"(١١١).

ومن مآثر تجلي الشخصية في المكان وتأثيرها فيه؛ المتمثل في التعامل السياسي والسلطاني في إزالته لرسم المكس المضروب على الحجاج أيام العبديين؛ مما خف العبء على الحجاج والمسافرين، ومحى البدع اللعينة التي كانت موجودة، وحبب زوارها في المجيء دون قيود أو عناء(١١٢). كما تطرق إلى عدل الشخصية وتأثيرها في المكان بترسيخ الأمن فيه، الأمر الذي يجعل رعيته يتصرفون ليلهم كنهارهم بقوله: "ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل أن الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرفًا فيما يعنيهم، ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم"(١١٣).

كما أشار الكاتب إلى شخصية نجم الدين الخبوشاني في الإشراف على القرافة من قبل السلطان صلاح الدين؛ مما جعلها أكثر احتفالًا وتأنقًا بفضل خبرته من ناحية، وإنفاق السلطان عليها من ناحية أخيرة، فللرجل سيرته التي تسبقه في بلاد الأندلس؛ الأمر الذي دفعهم لضرورة الالتقاء به والتبرك بدعواته بقوله: "والنفقة فيها لا تحصى. تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الخبوشاني. وسلطان هذه الجهات يسمح له بذلك كلّه، ويقول: زد احتفالًا وتأنقًا وعلينا القيام بمؤونة ذلك كله، فسبحان الذي جعل صلاح الدين كاسمه. ولقينا هذا الرجل الخبوشاني المذكور تبركًا بدعائه لأنه قد كان ذُكر لنا أمره بالأندلس. فألفيناه في مسجده بالقاهرة وفي البيت الذي يسكنه داخل المسجد المذكور.. وانصرفنا ولم نلق من رجال مصر سواه"(١١٤).

كما ذكر ابن جبير في رحلته شخصية الحاجب لؤلؤ(١١٥)، وتأثيره في المكان باستطاعته القضاء على نصارى الشام الذين عبثوا في بلاد مصر وسواحلها على البحر الأحمر ومدينة عيذاب، وعزموا الدخول على

مدينة رسول الله _صلى الله عليه وسلم_ بقوله: "ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وإخراجه من الضريح المقدس. أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم. فآخذهم الله باجترائهم عليه وتعاطيهم ما تحول عناية القدر بينهم وبينه. ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسرة يوم. فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والإسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد من المغاربة البحريين. فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم.. وكفى الله بجميل صنعه الإسلام والمسلمين أمر عظيمًا"(١١٦).

كما تطرق إلى حسن استقبال شخصية أحد قادة الحبشيين، الذين امتلكوا الديار والرباع والجلاب في مدينة عيذاب، ويدعي مونح(١١٧). كذلك شخصية عمال الدواوين وما أحدثوه من نفور للمكان في طليعة الرحلة من فرض الضرائب الباهظة(١١٨). وما حدث من أبناء الصعيد من تفتيش للبضاعة، والتدخل في شئون التجار والمسافرين، والتسلل بالمسال للمراكب لاستكشاف ما بداخله(١١٩).

المطلب الثاني: مصر والتجليات التاريخية

يُعد التاريخ عاملًا أساسيًا ومحورًا جوهريًا في تشكيل المكان المتمثل في مصر ومدنها، وحضوره بالذكريات الماضية، فقد استطاع ابن جبير في رحلته أن يربط بين مصر وتاريخيتها المتعددة سواء دينية أو سياسية أو غيرها؛ وقدَّمها من خلال صبغتها الزمانية بمرجعياتها التاريخية الفرعونية والإسلامية وغيرها من الأحداث التاريخية. فنجده يشير سريعًا لحضارة الإغريق في مدينة الإسكندرية؛ حيث سكنى الفلاسفة وأهل العلم لها بقوله:

"وذكر لنا في القديم مبانٍ للفلاسفة خاصة ولأهل الرئاسة في ذلك الزمان"(١٢٠).

كما تحدث عن حضارة مصر الفرعونية من خلال مشاهداته للأهرامات في منطقة الجيزة، واصفًا إياها بالغرابة، وإن رأى في تاريخيتها اختلاف؛ بقوله:" فمنهم من يجعلها قبورًا لعاد وبنيه، ومنهم من يزعم غير ذلك. وبالجملة فلا يعلم شأنها إلا الله عز وجل"(١٢١). على الرغم من فصل القول في تاريخيتها الفرعونية التي تعود إلى ملوك مصر القديمة، خوفو، وخفرع ومنكاوو_رع(١٢٢).

كما عبر من خلال مصر عن تاريخ الفتنة التي حدثت أيام العبيديين؛ حيث الحريق الذي نشب في مدينة مصر، ومن ثم الخراب الذي حل في بعض مناطقها عام ٥٦٤هـ، دون عرض لتفاصيل هذه الحادثة بقوله: "وبمدينة مصر آثار الخراب الذي أحدثه الإحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين، وذلك سنة أربع وستين وخمس مئة"(١٢٣).

كذلك تحدث ابن جبير في رحلته عن أهمية مصر التاريخية في منطقة أبو صير؛ إذ انتساب هذه المدينة للصديق ليوسف _عليه السلام_ والتي شهدت قصته المذكورة في القرآن الكريم، فضلًا عن سجنه، على الرغم من إنقاضه، ونقل أحجاره إلى قلعة القاهرة، وكذلك مخازن الطعام التي اختزنها أعوام القحط، وإن كانت مجوفة عند رؤيتها(١٢٤). فقد عبر المكان عن تاريخ مصر الفرعوني والديني فترة نزوح يوسف الصديق لها، ودعوته إلى التوحيد، والأحداث التاريخية المضمرة في تخزينه للطعام، فضلًا عن الرؤية العميقة في زيارة الأنبياء لمصر، والإقامة فيها من مثل ميلاد سيدنا

موسى _عليه السلام_ في مدينة أسكر بقوله: " فمنها قرية تعرف بأسكر في الضفة الشرقية من النيل مياسرة للصاعد فيه. ويذكر أن فيها كان مولد النبي موسى الكليم، صلى الله على نبينا وعليه، ومنها ألقته أمه في اليم، وهو النيل حسبما ذكر"(١٢٥)، متضمنا النص القرآني ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾(١٢٦).

كما أشار إلى تاريخية المكان بالقرب من منية ابن الخصيب(المنيا)، لعهد الخليل إبراهيم_عليه السلام_ حيث المسجد المنسوب إليه، فضلًا عما قيل وارتبط بهذا المكان من وجود أثر دابة الخليل التي كان يمتطيها(١٢٧). وقد رجع بالحائط الأثري الموجود بين مدينتي قوص وأسوان إلى تاريخ مصر بعد هلاك فرعون، ونجاة موسى عليه السلام وقومه(١٢٨).

ولم يكن حديث ابن جبير عن تاريخية مصر يقتصر فقط عند حدود الماضي؛ بل تحدث عما رآه من صراع سياسي خاصة عند دخوله مدينة الإسكندرية؛ الأمر الذي يتعلق بأسرى الروم الذين قَتلوا الحُجَّاج وأحرقوا مراكب المسلمين، واستيلائهم على قوافلهم، فضلًا عن عزمهم لدخول مسجد رسول الله كما أشرنا من قبل، إلى أن تم القضاء عليهم بفضل صلاح الدين وأحد قواده البواسل نجم الدين الخبوشاني(١٢٩). كما تطرق ابن جبير بالحديث المجمل لتاريخية مصر في صعيدها عند ماء العبدين اللذين ماتا إثر عطش أحل بهما، بقوله: "فنزلنا على ماء ينسب للعبدين، ويذكر أنهما ماتا عطشًا قبل أن يرداه فسمي هذا الموضع بهما، وقبراهما به، رحمهما الله"(١٣٠). كما تحدث بالذكر المجمل أيضًا للواقعة التي وقعت بين العرب من أبناء قضاعة وبعض الأغزاز الأتراك حول بئر دنقاش في صعيد مصر؛

بسبب التزاحم على الماء؛ الأمر الذي كاد أن يؤدي لفتنة عظيمة، فعصم الإسلام منها، دون ذكر التفاصيل الكافية التي من خلالها نستشف الأحداث(١٣١).

ولعل في رحلة الكاتب وحديثه وأوصافه للمدن المصرية، ورصده جل مشاهداته فيها منذ حلول مدينة الإسكندرية وحتى وصوله لمنطقة عيذاب، والإقلاع منها إفصاح لتاريخية مصر في العصور الوسطى في عهد صلاح الدين الأيوبي حضاريًا وسياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، مما أضفى على المكان تاريخيته الإسلامية أيام الحروب الصليبية.

فمن جملة ما سبق تتعدد تاريخية المكان في مصر ما بين الفرعونية، وما قبل الإسلام فضلًا عن التاريخ الإسلامي، هذا من ناحية، واكتفاء الكاتب ببعض الإشارات التاريخية لمصر، دون الدخول في تفاصيل أو الإدلاء بمعلومات كافية لزمنية حدوث هذه الوقائع من خلال بعض التلميحات مثل قصة العبدين من ناحية أخيرة.

المطلب الثالث: مصر والتجليات الدينية

يُعد الدِّين عاملًا محوريًا في تشكيل المكان وصبغته بالقيم المقدسة، والأهمية التراثية، فقد استطاع ابن جبير في رحلته توظيف الدين للتعبير من خلاله عن المكان المتمثل في مصر ومدنها، فقد أشار إلى كثرة المساجد في مصر بمختلف مدنها مثل مسجد عمرو بن العاص ومسجد ابن طولون، ومسجد الحسين، ومسجد الشافعي وكذلك مساجد مدينة الإسكندرية التي تفوق اثني عشر ألف مسجدًا(١٣٢). وقد ربط الكاتب بين مصر ومكانتها الدينية من خلال مشاهداته العينية؛ الأمر الذي يبرز أهميتها لما تحتضنه في قرافتها لأضرحة آل البيت _رضوان الله عليهم_ والشريفات العلويات

والصحابة والتابعين، والزهاد والعلماء، والفقهاء والأنبياء، وغيرهم، مثل مقام الحسين ورأسه، وقبر آسية امرأة فرعون، وغيرهم من الشخصيات الدينية البارزة، الأمر الذي يجعل مصر مهدًا للأنبياء والصالحين، مما يستوجب زيارتها وتقديسها والتيمن بها(١٣٣). ويحسب لابن جبير روعة تقسيمه لمشاهداته لقبور القرافة بشيء من الترتيب. وإن خالط بعض إشاراته التاريخية بعض المغالطات من مثل وجود قبر معاذ بن جبل، الذي "توفي بطاعون عَمواس بالشام ناحية الأردن سنة ثماني عشرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه"(١٣٤)، وكذلك حديثه عن أحمد بن أبي بكر، فلم يرد اسمه بين أبناء الصديق، كما ورد في كتاب الطبقات" وكان لأبي بكر من الولد عبد الله وأسماء ذات النطاقين... وعبد الرحمن وعائشة... ومحمد بن أبي بكر... وكلثوم بنت أبي بكر..."(١٣٥)، وكذلك قبر السيدة أسماء بنت أبي بكر التي لم يرد زياراتها لمصر من قبل في أي من المصادر التاريخية والدينية.

فتجلي الدين في مصر يتنوع ما بين مظاهر الدين الإسلامي متمثلة في أضرحة آل البيت والصحابة والتابعين، فضلًا عن أضرحة الأنبياء، وكذلك ما قبل الإسلام متمثلة في قبر آسية زوجة فرعون وروبيل بن يعقوب وغيرهم. كذلك في مدينة الجيزة التي تضم "قبر كعب الأحبار رضي الله عنه"(١٣٦) مما استوجب زيارته وتقديسه دينيًا.

ولم تقتصر مكانة مصر الدينية عند حدود المعالم الإسلامية فقط بل أشار إلى بعض الشواهد النصرانية من كنائس وبنيان قبط وهياكلهم العظيمة في مدينة إخميم، فضلًا عن التصاوير فيها والمعبرة عن معتقداتهم الدينية

بشيء من التفصيل(١٣٧). كما أشار الكاتب في عجالة لتطبيق صلاح الدين الجزية المفروضة على النصارى واليهود داخل مصر(١٣٨).

ولعل في ميلاد سيدنا موسى بمصر، وإقامة سيدنا يوسف بها، ونزوح الخليل إليها كما أشرنا من قبل ما يضفي عليها القيمة الدينية التي جعلت منها موطنًا للأنبياء(١٣٩).

ومن ثم فمكانة مصر الدينية تتنوع ما بين القيمة الإسلامية؛ حيث قبور الصحابة والتابعين، وكذلك النصرانية من كنائس هياكل، فضلًا عن مكانتها المقدسة التي ترجع إلى إقامة الأنبياء فيها.

المطلب الرابع: مصر وتجليات الخرافة والأساطير

لم يهمل ابن جبير في رحلته ما يتعلق بالخرافات والعجائب والأساطير، وبعض المعتقدات، سواء ما ذكره أهل مصر عنها، أو ما سمعه من الآخرين في رحلته، أو ما أَلِف ذكره قبل الرحلة، فيذكر عند زيارته للقرافة في القاهرة العديد من العجائب المتعلقة بأهل مصر، والمتمثلة في الكرامات مثل قبر الناطق، والعروس، والصامت الذي يحكى أنه لم يتكلم أربعين سنة بقوله: " قبر الناطق الذي سمع عند وضعه في لحده يقول: اللهم أنزلني منزلًا مباركًا وأنت خير المنزلين، رضي الله عنه، مشهد العروس ولها أثر من الكرامة في حال جلوتها على زوجها لم يسمع أعجب منه، مشهد الصامت الذي يحكى عنه أنه لم يتكلم أربعين سنة"(١٤٠).

كذلك ذكره الخرافات التي سمعها في مدينة الجيزة عند رؤية أحجار الرخام فيها، والمصور عليها بالتماسيح، وعلاقتها بالنيل بقوله: " فيقال: أن

بسببها لا تظهر التماسيح فيما يلي البلد من النيل مقدار ثلاثة أميال علوًا وسفلًا"(١٤١).

كذلك إشارته دون تفصيل إلى سور مدينتي قوص وأسوان والمسمى بحائط العجوز(١٤٢)، إذ يزعم المصريون والعرب ككل أن دلوكة بنت ريا العجوز، لمَّا غرق فرعون ومن معه لم يتبق في مصر سوى النساء والعبيد؛ فأعظم عليهن أن يتولى أمرهن العبيد وأجمعن رأيهن على أن تتولى دلوكة الحكم، وكانت تتميز برجاحة العقل ورزانته، فخافت أن يغزوها ملوك الأرض إثر علمهم بقلة رجالها، فبنت هذا السور العظيم على النيل، أحاطت به جميع المدن المصرية(١٤٣). كذلك في حديثه عن مدينة عيذاب، وإبداء أسباب كرهه لها، قد أشار إلى بعض المعتقدات والخرافات التي تزعم بأن النبي سليمان _عليه السلام_ قد اتخذها سجنًا للعفاريت، مما زاد نفوره منها قديمًا وحديثًا، وقد اسماها "البلدة الملعونة"(١٤٤).

المبحث الثالث: تشكلات مصر في رحلة ابن جبير

بعد تقديم الرؤية الفنية الخاصة بالكاتب لمصر؛ لابد من معرفة كيفية تشكيله لها من خلال أدواته الكتابية والفنية، والتي تعتمد على التشكلات السردية المتنوعة من مثل الأسلوب الوصفي والحواري، والقصصي، بالإضافة إلى الفضاء المكاني المتمثل في الأماكن المصرية المختلفة، فضلًا عن الصورة الفنية المتمثلة في الصور البلاغية والتناص، ومن خلالها تتم معرفة القيمة الأدبية في الرحلات والتي " تتجلى في ما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترتقي بها إلى مستوى الخيال الفني، وبرغم ما يتسم به أدب الرحلات من تنوع في الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره فإن أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق، بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى"(١٤٥). ومن خلال هذا التشكيل تخرج الرحلة من دائرة الجغرافية منها إلى الأدب؛ لاعتماد الكاتب على مجموعة من الأدوات" أما أسلوب الكتابة، واللغة التي يتوسل بها كاتب الرحلة، فإنه قد يضيف لها" قيمة أدبية، وبخاصة عندما يحتفل الكاتب بالأساطير والخرافات، وبعض المحسنات البلاغية، وجمال اللفظ، وحسن التعبير، وارتقاء الوصف، وبلوغه حدًا كبيرًا من الدقة، علاوة على ما قد يستعين به_أحيانًا_ من أسلوب قصصي، سلس، مشرق"(١٤٦)؛ لذا عُدَّت رحلة ابن جبير" من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الأدب العربي، وإذا كان وصفه المفصل للأبنية مملًا للقارئ العادي فإن أسلوبه يمتاز بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير"(١٤٧). ويمكن الوقوف مع تشكلات مصر في رحلة ابن جبير على النحو الآتي:

المطلب الأول: التشكلات السردية:

تمثلت التشكلات السردية لمصر في رحلة ابن جبير في الأسلوب القصصي والحواري، والأسلوب الوصفي، فضلًا عن الفضاء المكاني. ويمكن التوقف مع هذه الأساليب والتشكلات على النحو الآتي:

(أ) الأسلوب القصصي والحواري

اعتمد ابن جبير في تشكيل مصر على تقنية السرد التتابعي، فجاء لرصد التنقل والحركة من خلال أفعالها؛ فاعتمد كثيرًا على **الأسلوب القصصي** المتحلي في بعض المناسبات الضيقة بالصنعة الفنية؛ ومن ثم تمثلت سردياته في الرحلة مزاوجة بين تقديم الصورة الوصفية الجغرافية البحتة، التي تخلو من الألوان الفنية والمحسنات البديعية_ وهذا النوع هو الكثير عنده_ من مثل: حديثه عن مناقب الإسكندرية، وحديثه عن مدينة دمنهور، كذلك على الرغم من وصفه القرافة، ومقابر الأنبياء والصالحين، وشدة جمالها؛ إلا إنه لم يقدمها من خلال السرد المرسل المتتابع دون صنعة فنية، وإن قدمها بإبداع الكلمات والوصف الذي فاق الصور بمخيلاتها(١٤٨). وبين تقديم الصورة الوصفية لمصر من خلال الصنعة الفنية بألوانها البلاغية والجمالية، وإن جاءت في مرتبة تالية، وانحصرت في مقدمات الوصف للمدن المصرية؛ لاعتماده على السرد القصصي التتابعي من ناحية، والرغبة في الوصول لهدفه المنشود من الرحلة المتمثل في الحج من ناحية أخيرة. وسوف نتطرق إليها بالتفصيل عند الحديث عن الصورة الفنية في هذا المبحث، ومن الأمثلة عليه قوله: " ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل أن الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرفًا فيما يعينهم، ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم"(١٤٩). وكذلك قوله: " وهذه المدينة حفيلة

الأسواق متسعة الرفاق كثيرة الخلق...لأنها مخطر للجميع، ومحط للرحال ومجتمع الرفاق"(١٥٠). وقوله: " فيه من أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع ما لا يتخيله المتخيلون، لا يلحق أدنى وصفه الواصفون"(١٥١).

أمَّا **الأسلوب الحواري** فقد خلت رحلته إلى مصر منه صراحة، وإن تضمنته بصورة قليلة جدًا في بعض المواقف في سياق السرد القصصي، وتقديم وصف الرحلة، من مثل محاورة أمناء السلطان في الإسكندرية للركاب عن أسمائهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، ثم إنزالهم لرفيق رحلته_أحمد بن حسان_ ليُسأل عن أنباء المغرب وسلع المركب، فيجيب ويُقيد ما يقول من قبل الأمناء(١٥٢). فالحوار يعكس حرص المصريين على بلادهم وخاصة من الغرباء. كما اعتمد على الحوار في تقديم صورة السلطان صلاح الدين المثالية؛ في تقديم العون للغرباء، وخاصة زائري المسجد الحرام من الحجاج، الذين لفظتهم صحراء طرابلس تائهين، وقد ظهر عليهم التعب من شدة العطش والجوع، بقوله متضمنا الأسلوب الحواري: " فسألهم عن وجهتهم واستطلع ما لديهم. فأعلموه أنهم قاصدون بيت الله الحرام وأنهم ركبوا البر وكابدوا مشقة صحرائية. فقال: لو وصل هؤلاء وهم قد اعتسفوا هذه المجاهل التي اعتسفوها وكابدوا من الشقاء ما كابدوه وبيد كل واحد منهم زنته ذهبًا وفضة لوجب أن يشاركوا ولا يقطعوا عن العادة التي أجريناه لهم"(١٥٣)، وكذلك قوله متعجبًا من سياسة السلطان مع الغرباء في أن جعل أحكامهم إليهم، متضمنًا الأسلوب الحواري بقوله: " ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم إليهم ...."(١٥٤). كذلك التضمين الحواري عند رؤيته لأسرى الروم الراكبين على الجمال، ووجوههم

إلى أذنابها، بقوله: "فسألنا عن قصتهم، فأخبرنا لأمر تنفطر له الأكباد إشفاقًا وجزعًا..."(١٥٥). فيعكس الحوار استغراب الكاتب للصنيع، ثم يبرز قساوة نصارى الروم مع الحجاج بإحراق مركبهم وقتلهم، فضلًا عن نيتهم في دخول المدينة وإخراج قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن جملة ما سبق يتضح خلو رحلة ابن جبير إلى مصر من الأسلوب الحواري المباشر، واعتمد على التضمين لاهتمامه بالوصف الطولي للرحلة.

(ب) الأسلوب الوصفي

يُعدُّ الارتباط وثيقًا بين السرد والوصف؛ إذ إن الوصف" مقاطع من زمن الرحلة يمهد لها، ويؤطرها التنقل الذي يشكل المفاصل الرئيسة للرحلة"(١٥٦). فالرحلة فنًا وصفيًا؛ ويرجع ذلك إلى اعتماد السارد في المستوى المرجعي على المشاهدات العينية، وهو ما يعطي للرحلة مفهوم الفن البصري على مستوى الكتابة باعتباره تصويرًا عن طريق اللغة(١٥٧). فقد اعتمد ابن جبير في تشكلات مصر على **الأسلوب الوصفي** الذي يعد المحور الأساس في أدب الرحلة؛ إذ يسجل الكاتب جل مشاهداته بعناية كبيرة، فجاء أسلوبه الوصفي مزاوجًا بين الأسلوب التوضيحي (الداخلي) الذي يهتم بذكر تفاصيل المكان، وكذلك الأسلوب الشمولي (الخارجي) في بعض المدن، ومن ثم جمع بين الإسهاب والإطناب معًا، وإن شمل أسلوبه الوصفي: الوصف التزييني، والوصف التفسيري الرمزي بناءً على تقسيم (جينيت) الذي أورده الدكتور حسن بحراوي في كتابه بنية الشكل الروائي، وكذلك الوصف التفصيلي الذي أضافته سيزا قاسم عن (بلزاك) في كتابها بناء الرواية. **فالوصف التزييني**: أو ما يسمى بالوظيفة التزيينية وهي "

الموروثة عن البلاغة التقليدية التي كانت تصنف الوصف ضمن زخرف الخطاب أي كصورة أسلوبية وتعتبره تأسيسًا على ذلك مجرد وقفة أو استراحة للسرد وليس له سوى دور جمالي خالص"(١٥٨)، ويكون الوصف فيه أشبه بالحشو الذي لا طائلة منه، ويمكن الاستغناء عنه دون أن يؤثر في مجريات القصة والسرد. فمن أمثلته في الرحلة الخاصة بمصر، إطالته في تقديم الخطيب والخطبة في مدينة القاهرة بقوله:" ويأخذ الخطيب فيها مأخذ سني يجمع فيها الدعاء للصحابة، رضي الله عنهم، وللتابعين ومن سواهم ولأمهات المؤمنين زوجات النبي، صلى الله عليه وسلم، ولعميه الكريمين حمزة والعباس، رضي الله عنهما... ويأتي للخطبة لابسًا السواد على رسم العباسية... وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر في أول ارتقائه ضربة يُسمع بها الحاضرين كأنها إيذان بالإنصات.."(١٥٩).

أمَّا **الوصف التفصيلي**: وهو الوقوف على كل التفاصيل الدقيقة، وتناول أكبر عدد ممكن من تفاصيل الشيء الموصوف، ولذلك تطول مقاطع الوصف وتتفرع"(١٦٠) فيه، وهو يتنافى مع الانتقاء، ويرى بعض الدارسين أن هذا الوصف القائم على التفاصيل يحد من خيال القاريء ويقتله(١٦١). والأمثلة عليه متعددة في رحلة ابن جبير لمصر إذ ارتكز عليه كثيرًا في تقديم المكان من مثل مستشفى المجانين(١٦٢)، والقرافة(١٦٣)، والأهرامات(١٦٤)، وهيكل إخميم(١٦٥). كما شكَّل ابن جبير مصر من خلال **الوصف التفسيري** الذي يعتمد على كثرة التوضيحات والتفسيرات، إذْ يعد" الوظيفة الكبرى التي تقضي بأن يكون المقطع الوصفي في خدمة القصة، وعنصرًا أساسيًا في العرض؛ أي أن يكون في نفس الوقت سببًا ونتيجة"(١٦٦)؛ ومن ثم يبتعد عن الحشو والتعطيل، ويتمثل في رحلة ابن

جبير لمصر في قوله معللًا لكثرة الناس في مدينة قوص:" كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة.. وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين ومن يتصل بهم"(١٦٧)، وفي حديثه عن عيذاب بقوله: " وهي من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها زائدًا إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة"(١٦٨)، وقوله: " والقصد إلى عيذاب من قوص على طريقين: أحدهما يُعرف بطريق العبدين، وهي هذه التي سلكناها، وهي أقصد مسافة، والآخر طريق دون قنا، وهي قرية على شاطئ النيل. ومجتمع هاتين الطريقين على مقربة من ماء دنقاش المذكور، ولهما مجتمع آخر على ماء يعرف بشاغب أمام ماء دنقاش بيوم"(١٦٩)، وكذلك قوله: " ومن العجب في وصفه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن؛ لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض، فتتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضًا"(١٧٠).

(ج) الفضاء المكاني

يعد الفضاء المكاني" الصورة الفنية للمكان الأليف، وذلك هو البيت الذي وُلدنا فيه، أي بيت الطفولة، وأنه المكان الذي مارسنا فيه أحلام اليقظة، وتشكل فيه خيالنا"(١٧١). ويعرفه أندري لالاند بقوله هو "وسط مثالي، متميز بظاهرية أجزائه، تتمركز فيه مداركناpercepts وتاليًا يتضمن كل الفضاءات المتناهية"(١٧٢). ويمثل الحياة وما تشتمل عليه من مظاهر تعايش لأنه" يعني الارتباط الجذري بفعل الكينونة لأداء الطقوس اليومية للعيش وللوجود، لفهم الحقائق الصغيرة، لبناء الروح، وللتراكيب المعقدة والخفية، لصياغة المشروع الإنساني ضمن الأفعال المبهمة، للتنشئة

المخيلة، وتدمج كلية الحياة في صورة مكانية"(١٧٣). وقد قسم بروب المكان إلى ثلاثة أنواع؛ المكان الأصل: ويمثل عادة مسقط رأس المؤلف أو محل إقامته وعائلته، والمكان الوقتي أو العرضي: وهو المكان الذي تبلور فيه الاختبار الترشيحي المؤهل للمكان المركزي، والمكان المركزي: وهو مكان حدوث الاختبار الرئيس(١٧٤). وقد تعدت أوصاف ابن جبير في رحلته للأماكن المصرية المختلفة، ويمكننا التوقف معها من خلال تشكلات الفضاء المكاني على النحو الآتي:

(١) المكان الرئيس والفرعي والمعبر

يعد المكان أهم مكونات النص السردي، وخطابه فهو الوعاء الذي يحوي جميع عناصر السرد وبنيته، بل إن أهميته تفوق جميع العناصر الأخرى؛ فبدونه لا تتم الحكاية وحبكتها. تنوعت الأماكن في رحلة ابن جبير الخاصة بالأماكن المصرية ما بين المكان الرئيس والفرعي والمعبر والمغلق والمفتوح، **فالمكان الرئيس**: وهو المكان الذي انطلق منه السرد(١٧٥)، وقد صرح ابن جبير به متمثلًا في مدينة غرناطة، ومنها إلى مصر، ثم الحجاز، ثم الشام ثم العودة إليها_غرناطة_ على طول الرحلة بقوله: " ابتدئ بتقيدها يوم الجمعة الموفي ثلاثين لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمس مائة على متن البحر... وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة، حرسها الله، للنية الحجازية المباركة، قرنها الله بالتيسير والتسهيل"(١٧٦).

أمَّا **المكان الفرعي**: وهو المكان الذي انطلق منه الحكي وفيه تقع أحداث القصة ومكانها(١٧٧). متمثلًا في الفضاء الرحب المعبر عن حركة تنقل الرحلة، منذ الخروج من غرناطة يوم الجمعة ٣٠ من شوال لعام ٥٧٨هـ، ثم التنقل بين مدنها، ووصولًا إلى مدينة الإسكندرية، ومنها إلى

المدن المصرية تباعًا في طريقه البحري والبري معًا، وحركة الرحلة فيها بين استقرار في مدن، والانطلاق منها متممًا لرحلته، وراصدًا لكل مشاهداته العينية والسماعية للمدن المصرية.

ويتمثل **المكان المعبر:** الذي يطلق على الشوارع والساحات والحوانيت وما في حكمها كما ترى الباحثة السردية ميك بال(١٧٨)، في الأماكن التي تمثل نقاط حركة وتنقل لمرحلة أخرى، وأماكن أكثر حيوية لا يمكن تجاهلها في الرحلة من أمثلة: إقلاعه من مدينة دمنهور عبر النيل في مكان يسمى (بصا) من خلال مركب تعدية، ثم الوصول (ببرمة)، والبيات فيها، ثم التبكير إلى مدينة طنطا.(١٧٩)، وكذلك قوله في صعيد مصر:" وفي ليلة الأربعاء الخامس عشر منه، ونحن بالحاجز المذكور، خسف القمر.. ثم أصبحنا يوم الأربعاء المذكور ظاعنين، وقلنا بموضع يعرف بقلاع الضياع. ثم كان المبيت بموضع يعرف بمحط اللقيطة(١٨٠).. ثم غدونا يوم الخميس فنزلنا على ماء ينسب للعبدين..(١٨١).

(٢) المكان المفتوح: وهو كل ما يوحي بالاتساع دون استدارة أو إحاطة، فهو "حيز مكاني خارجي لا تحده حدود ضيقة يشكل فضاءً رحبًا وغالبًا ما يكون لوحة طبيعية في الهواء الطلق"(١٨٢). ويتمثل في رحلة ابن جبير إلى مصر في الطريق من غرناطة، وصولًا إلى الأماكن المصرية، حتى الوصول إلى الحج، وكذلك الأسواق والنيل وما يعادله من بحر ويم، والجبال والصحاري على النحو الآتي:

أ- الطريق: يعد الطريق في رحلة ابن جبير المحور الذي ابتدأت منه الرحلة؛ حيث الخروج من غرناطة، والوصول إلى الإسكندرية ثم دمنهور، ثم القاهرة ثم الصعيد بمدنه المتعددة، حتى الوصول إلى مدينة عيذاب، ومنها

إلى الحجاز، من مثل قوله: " واجتزنا في ذلك اليوم على موضع حسن يعرف بمليج، والعمارة متصلة، والقرى منتظمة في طريقنا كله"(١٨٣)، وكذلك في توضيحه الطريق إلى عيذاب من مدينة قوص كما أشرنا من قبل من خلال طريقي العبدين، ودون مدينة قنا.

ب- الأسواق: لفضاء الأسواق دلالته الاقتصادية في رحلة ابن جبير، ورفاهية العيش، وإن ربطها دائمًا بالسياسة، وفضل صلاح الدين في إنشائها؛ الأمر الذي يعكس مستوى معيشة المدن المصرية التي تحوي العديد من الأسواق الكبيرة. فنجده يتعجب من شدة ازدحام أسواق مدينة الإسكندرية بقوله: "وأسواقه في نهاية من الاحتفال"(١٨٤)؛ أي الازدحام، كما وصفها بالجمال الذي يتنافر مع طبيعتها المزدحمة في مدينة قليوب بقوله: " فمن أحسن بلد مررنا عليه موضع يعرف بقليوب على ستة أميال من القاهرة فيه الأسواق الجميلة"(١٨٥). وقد يُخصص لها يومًا واحدًا لعقدها كما في مدينة الجيزة(١٨٦)، ويشيد باتساع أسواق مدينة المنيا بقوله: "وهو بلد على شط النيل ميامنًا للصاعد فيه كبير الأسواق والحمامات وسائر المرافق"(١٨٧). وغيرها كما في أبي تيج(١٨٨)، ومدينة قوص(١٨٩)، ولكل منها دلالة الكثرة والاتساع والتنظيم وحسن تدابير السلطة ورفاهية العيش.

ج- النيل/البحر: لفضاء البحر دلالته الطبيعية والجمالية في الفكر العربي، فضلًا عن مخاطره وأهواله ودلالة الصعاب، وقد استطاع ابن جبير أن يعبر من خلاله عن دلالة الجمال الطبيعي، كما في شق النيل لمدينة الجيزة مما أضفى عليها جمالية المنظر(١٩٠)، كما أشار إلى اليم بدلالته الدينية والتاريخية لارتباطه بقصة سيدنا موسى _عليه السلام_ في مدينة أسكر بقوله: " ومنها ألقته أمه في اليم، وهو النيل حسبما ذكر"(١٩١). كما أشار

إلى البحر بدلالته الجغرافية في بحر القلزم وبحر النعم(١٩٢)؛ كوسيلة تنقل إلى المدن المصرية(١٩٣)، وكذلك في صعيد مصر بقوله: " وكان مقامنا في النيل ثمانية عشر يومًا"(١٩٤). كما أشار إلى دلالته الاقتصادية في مدينة عيذاب بقوله: " في بحر عيذاب مغاص على اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها.. ويستخرج منه جوهر نفيس"(١٩٥) وكذلك إشارته إلى دلالة الخوف والذعر بقوله مستنكرًا صنيع أصحاب الجلاب وعدم مبالاتهم لأهوال البحر ومخاطره(١٩٦).

د- الصحراء: تطرق ابن جبير في رحلته لفضاء الصحراء ودلالته المألوفة من ذعر، ووحشة، ونقص ماء، ومعاناة، وافتقار للأنس والإيلاف، كما في منطقة محط اللقيطة(١٩٧) بقوله: "ثم كان المبيت بموضع يعرف بمحط اللقيطة، كل ذلك في صحراء لا عمارة فيها"(١٩٨)، كما قدم دلالة الحيرة والتوه المرتبطة بالصحراء؛ لذا وجب عليهم المبيت حتى بزوغ النهار، ومعرفة السير في منطقة العبدين.(١٩٩)، وإن خالف صور الصحراء المألوفة في صحراء عيذاب التي تتسم بالأمان، على الرغم من وجود الفلفل، والعديد من السلع المطروحة دون حراسة كما قدمنا من قبل(٢٠٠).

هـ- القرى الفسيحة: كما أشار ابن جبير إلى القرى الفسيحة والمتسقة في مصر، ودلالة الاتساع بحكم تتبعه للمدن المصرية، حتى وصل إلى بحر عيذاب ومنه إلى الحج، مثل إشارته لوصف مدينة طنطا بقوله: "فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف بطنتدة، وهي من القرى الفسيحة الآهلة"(٢٠١)، وكذلك قرية أنصتا "وهي قرية فسيحة جميلة بها آثار قديمة"(٢٠٢)، وكذلك المبرز الذي يراه" فسيح الساحة"(٢٠٣).

و – الجبل: كما تطرق ابن جبير إلى المكان المفتوح المتمثل في الجبل في طريقه كمنطقة عبور، وتنقل وحركة بين المدن المصرية لابد من السير عليها، واجتيازها للوصول إلى مرامه من المدن_وليس كما ألفناه من دلالة ذعر ومخاوف ووحشية_ كما في جبل المقلة بقوله: " اجتزنا بالجبل المعروف بجبل المقلة وهو بالشط الشرقي من النيل مياسرًا للصاعد فيه، وهو نصف الطريق إلى قوص، من مصر إليه ثلاثة عشر بريدًا، ومنه إلى قوص مثلها"(٢٠٤).

(٣) المكان المغلق: هو المكن الضيق، والمحصور، وكل مُسَوَّر أو مستدير ويمثله في رحلة ابن جبير لمصر الآتي:

أ– المسجد: يُمثل المسجد في رحلة ابن جبير فضاءً مغلقًا له هويته الدينية والحضارية؛ فنجده يُشيد بمسجد مدينة الإسكندرية واصفًا إياه بالبركة، والتقديس، ودلالة التيمن في قوله: " وفي أعلاه مسجد موصوف بالبركة"(٢٠٥) كما أشاد إلى دلالته الدينية المصطبغة بالناحية السياسية في كثرة مساجدها، واهتمام السلطان بعمرانيتها(٢٠٦). كما أشاد بعمرانيتها الحضارية في مدينة القاهرة بشيء من الغرابة والاستعجاب؛ لكثرة رخامها خاصة في مسجد الحسين بقوله: " والمدخل إلى هذه الروضة على مسجد على أمثالها في التأنق والغرابة، حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة"(٢٠٧) ويشيد باتساع مسجد ابن طولون، وزخرفته، فضلًا عن عراقته التاريخية، ومكانته السياسية والاجتماعية؛ إذ جعله السلطان مأوىً للغرباء الدارسين(٢٠٨). كما للمسجد دلالة الانتماء الفقهي عند ابن جبير خاصة مسجد عمرو بن العاص، في مدينتي القاهرة والإسكندرية، والذي كان ملتقى المالكية بقوله: "وهو مصلى الجمعة للمالكيين"(٢٠٩).

ب- القرافة: كما شغل المكان المغلق المتمثل في المقابر أو القرافة فضاءً له دلالته الحضارية، والدينية، والتاريخية في مصر عند ابن جبير؛ لأنها تحوي أجساد الصحابة والتابعين وأمهات المؤمنين، وآل البيت، فنجده يشيد بمدفن الإمام الحسين _رضي الله عنه_ وحسن ديباجته(٢١٠) كما أشاد بروعة إتقان قبور الشريفات العلويات في القاهرة، وبراعة بنيانها(٢١١)؛ الأمر الذي جعل منها مأوى " للغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء"(٢١٢)؛ لأهميتها الحضارية في زيارتها والتبرك بها. فلم يعتمد ابن جبير عليها كما هو معهود في الفكر العربي من الاتعاظ وغيره، بل ارتكز فقط على الدلالة التقديسية والتاريخية والدينية.

ج- الفنـــدق: مَثَّل الفندق في رحلة ابن جبير مكانًا مغلقًا له دلالته الحضارية، دالًا على التقدم الذي كانت عليه مصر أيام صلاح الدين في العصور الوسطى، بتخصيص منازل فخمة للنزلاء من ناحية، والاستراحة من وعثاء السفر ومشقته من ناحية أخرى، فضلًا عن الإشادة بعمرانية مصر، وتقدمها الحضاري من ناحية أخيرة. فنجده يذكر استراحته الأولي في بلاد مصر في فندق الصفار بالإسكندرية بقوله: "وكان نزولنا بها بفندق يعرف بفندق الصفار بمقربةٍ من الصبانة"(٢١٣)، وكذلك نزوله بفندق أبي الثناء في القاهرة بقوله: "وكان نزولنا في مصر بفندق أبي الثناء في زقاق القناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص، رضي الله عنه، في حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور"(٢١٤)، وكذلك في صعيد مصر في مدينة قوص ونزوله بفندق ابن العجمي بالمُنية(٢١٥). مما يدلل على أن حضارية مصر وتمدينها شمل جميع البلاد المصرية.

د- المدارس: مثلت المدارس فضاءً مغلقًا في رحلة ابن جبير بدلالته العلمية، ثم الحضارية والسياسية؛ لربطها بالسلطان صلاح الدين والعناية بها، فنجده يشيد باتساع مسجد الإمام الشافعي بالقاهرة، حتى يُخيَّل إليه بأنه بلد مستقل؛ لروعة بنائه واحتوائه العديد من المرافق الحيايتة، ونظرًا لكثرة الإنفاق عليها فيراها أعظم مدرسة في البلاد على حد تعبيره(٢١٦)، كما جمعت مدارس الإسكندرية بين الدين والعلم معًا؛ إذ جعلها السلطان قاصرة على أهل الطب والعبادة، وتتيح لدارسيها حرية اختيار ما يتعلمونه، مع توفير كل سبل التعليم لهم(٢١٧)، كما اصطبغت بعض المدارس بالدلالة السياسية والدينية معًا بتوفير السلطان المدارس الخاصة بالقرآن الكريم لأبناء الفقراء والأيتام بقوله: " أنه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله، عز وجل، يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة"(٢١٨).

هـ- البيت: تنوعت دلالة البيت في فضاء ابن جبير بين الدلالة الحضارية والعمرانية من ناحية الإنشاء، والدلالة الاجتماعية من ناحية الكرم وحسن الضيافة، والدلالة الدينية من التبرك بأصحابها؛ فنجده يشيد بحضارة بنيان البيوت الموجودة جوار مسجد الحسين بقوله: "وعن يمين الروضة المذكورة وشمالها بيتان من كليهما المدخل إليها وهما أيضًا على تلك الصفة بعينها. والأستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع"(٢١٩)، كما أشار إلى زيارته لنجم الدين الخبوشاني في بيته داخل المسجد، وعلى الرغم من وصفه له بالضيق، إلا أنه تبرك بدعواته(٢٢٠)، وكذلك نزوله بدار أحد قادة الحبشيين في مدينة عيذاب، وحسن ضيافته(٢٢١).

و- المارستان: كما مثلت المارستان دلالة سياسية؛ إذ عناية السلطان صلاح الدين بالمرضى والاهتمام بصحة رعيته، فضلًا عن الدلالة الحضارية

والمعمارية إثر بنائها وهيئتها. فنجده يشيد بصنيع صلاح الدين واهتمامه بالمرضى الغرباء فنصب إليهم مارستانًا لعلاجهم.(٢٢٢)، فضلًا عن اكتمال مارستان القاهرة وشموليته الحضارية لجل الأدوات الطبية، ومن الملاحظ ارتباط المكان المغلق المارستان بالسلطان ارتباطًا كبيرًا؛ إذ قدمه من خلال الرؤية السياسية، على الرغم من عدم التقائه به، وإنما شهادة حق من كاتب رحالة، لا يريد بها التقرب ولا غيره من الهبات السلطانية(٢٢٣).

ز- الآبار: كما تطرق ابن جبير في رحلته إلى أهمية المكان المغلق المتمثل في الآبار المستديرة، ودلالتها على البقاء والحياة، حيث التزود بالماء، لاستكمال مسيرة الرحلة، ومن ثم الوصول إلى هدفه، وإن جمعت آبار مصر خاصة في صعيدها بين الماء العذب والإشادة به، والماء الزعاق والنفور منه؛ فنجده يشيد ببئر دنقاش(٢٢٤) في صحراء عيذاب، وعذوبة مائه، وكثرة وارديه من الناس والأنعام بقوله: " وهي بئر معينة يرد فيها من الأنعام والأنام ما لا يحصيهم إلا الله عز وجل"(٢٢٥)، وكذلك بئر مجاج بقوله: " ومنه تزودنا الماء لأربعة أيام إلى ماء بموضع يعرف بالعشراء"(٢٢٦) وبئر الخبيب الذي يشبه الجب الكبير لكثرة مائه وعمقه(٢٢٧)، كما نفر من ملوحة ماء شاغب" وهذا الماء ثماد يحفر عليه في الأرض فتسمح به قريبًا غير بعيد إلا أنه زعاق"(٢٢٨) ومثله ماء العشراء(٢٢٩).

ح- الهياكل والكنائس: كما تطرق إلى الهياكل في صعيد مصر، ودلالتها الحضارية والدينية خاصة في مدينتي إخميم ودندرة، وروعة اتساعها، وبنائها، وتصميمها، واحتوائها الرسوم والتصاوير العديدة(٢٣٠). كما أشار إلى الكنائس بفضائها المغلق، ودلالتها الدينية المصطبغة بصبغة سياسية، من تسامح ساد في عصر صلاح الدين في منطقة إخميم؛ إذ كانت معمورة

بالمعاهدين، يمارسون طقوسهم، وشعائرهم بقوله: " وبهذه المدينة المذكورة آثار ومصانع من بنيان القبط وكنائس معمورة إلى الآن بالمعاهدين من نصارى القبط"(٢٣١).

ط- السجن/ مخزن الطعام: كما أشار إلى السجن، ومخزن الطعام_ بصورة طولية_ كفضاء مغلق له أهميته الدينية والتاريخية المتمثلة في قصة سيدنا يوسف عليه السلام(٢٣٢).

ك- المنار: كذلك في إشارته إلى منار الإسكندرية، ودلالته الحضارية، والمعمارية، وما يحتويه من روعة بنيان، وعراقة تاريخ، وهداية للمسافرين من طريق البحر، الذين يعرفون الإسكندرية من خلاله فهو: " آية للمتوسيمن وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى بر الإسكندرية.. ومبناه في غاية العتاقة والوثاقة طولًا وعرضًا"(٢٣٣).

ل- القلاع والحصون: كما أشار ابن جبير إلى قلعة القاهرة، موحيًا بها إلى شدة الحماية، وروعة الحصون وشدتها، وكثرة خنادقها، وذلك لأهميتها السياسية؛ حيث سُكنى السلطان فيها، فضلًا عن روعة بنائها وفنية معماريتها(٢٣٤).

م- المدن المستديرة: على عكس القرى الفسيحة؛ وصف بعض المدن بالاستدارة والتكوف؛ نظرًا لدلالتها الأمنية والجمالية؛ فنجده يشيد بمدينة أسيوط وسورها العميق(٢٣٥)، وكذلك مدينة دشنة(٢٣٦).

المطلب الثاني: التشكلات الفنية

تتمثل التشكلات الفنية في الصورة الفنية وأدواتها، وبما أن الرحلة تقوم على الوصف ركيزة أساسية، فلابد للكاتب من استدعاء بعض الصور

الفنية والبلاغية؛ لتقديم رؤيته وتشكيله للمكان ووصفه، لذا جاء عرض ابن جبير العام متمثلًا في" الصنعة والأناقة، وهو كثيرًا ما يلجأ إلى السجع الذي يعالجه بالكثير من المهارة دون أن يبالغ فيه أو يضطر القارئ إلى تكلف الجهد في تفهمه"(٢٣٧)، وإن قصد كراتشوفسكي فنيته في الرحلة ككل، وخاصة بعد الخروج من مصر؛ إذ لا نجد اعتماده على السجع وبقية الصور البلاغية إلا في صور ضئيلة للغاية في وصفه للأماكن المصرية؛ فـ "لا يلتزم الأسلوب التصويري إلا في مقدمات المقاطع الوصفية للمدن والمشاهد أما ما عدا ذلك فإن أسلوبه السردي يغلب عليه الإرسال والإطلاق حتى في أثناء الوصف"(٢٣٨) ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

(أ) التشبيه: استدعى ابن جبير التشبيه في رحلته وتقديم مصر؛ لعقد مشابهة نصية لبعض الأماكن، منها تشبيه قبر الحسين _رضي الله عنه_ بالروضة الطبيعية في حسنها وجمالها، وما يستدعيه المشبه به من جماليات وطمأنينة نفس بقوله: " وعلقت عليه قناديل فضة، وحف أعلاه طله بأمثال التفافيح ذهبًا في مصنع شبيه الروضة يقيد الإبصار حسنًا وجمالًا.."(٢٣٩)، كذلك وصفه لحجر مسجد الإمام الحسين بالمرأة الهندية الحديثة رغم قدم البناء، الأمر الذي يصيبه بالدهشة والاستغراب(٢٤٠) وتشبيه لرصيف قناطر القاهرة، وطول امتداده ورسوخه، وقدمه بالجبل، وما يستدعيه المشبه به من رسوخ وثبات وأصالة في قوله: " بعد رصيف ابتدىء به من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود عل الأرض.."(٢٤١)، كما تعجب من خلال التشبيه لروعة كنائس أخميم(٢٤٢).

(ب) الكناية: كما اعتمد ابن جبير على الصور الكنائية في تقديم أوصافه لمصر، والتعبير بها كثيرًا، خاصة عن كثرة مآثر السلطان، وأفضاله التي

يضيق عنها الحصر في مصر(٢٤٣)، كذلك في حديثه عن هيكل إخميم، واتساعه، حتى أن الناس يتفرقون، ولا يجتمعون إلا بالنداء العالي بقوله:" وداخل هذا الهيكل من المجالس والزوايا والمداخل والمخارج والمصاعد والمعارج والمسارب والموالج ما تضل فيه الجماعات من الناس ولا يهتدي بعضهم لبعض إلا بالنداء العالي"(٢٤٤)، فضلًا عن جماله الذي يعجز الكتاب المهرة على وصفه(٢٤٥)، كما كنى عن الوحشة والذعر في صحراء محط اللقيطة بقوله: " كل ذلك في صحراء لا عمارة فيها"(٢٤٦).

(ج) المجاز: استخدم ابن جبير المجاز بصورة كبيرة في حديثه عن آبار الصعيد في رحلته إلى عيذاب؛ إذ تحدث عن العلاقة الكلية بقوله: "واتصل سيرنا إلى موضع يعرف برمة فكان مبيتنا بها"(٢٤٧) فقد صَرَّح بالمبيت في برمة، وقصد أحد بيوتاتها. كذلك العلاقة الحالية؛ حيث صَرَّح بالحال المتمثل في الماء، وقصد المحل أو المكان نفسه، المتمثل في البئر بقوله: "كان نزولنا على الماء بموضع يعرف بالعشراء على مرحلتين من عيذاب"(٢٤٨).

(د) الاستعارة: اعتمد عليها كثيرًا في بداية أوصافه للمدن المصرية، وكأنها بشرًا يراهم، ويتحدث عنهم مثل قوله: " منها ما شاهدنا بلدًا"(٢٤٩) وكذلك وصفه للأسواق بالجميلة(٢٥٠)، وكذلك قوله: " شاهدنا بنيان القلعة"(٢٥١) وغيرها من الأمثلة المتعددة في الرحلة.

(هـ) السجع والجناس: استخدم ابن جبير **السجع** بصورة قليلة جدًا منها قوله في وصف مارستان القاهرة: "وهو قصر من القصور الرائقة حسنًا واتساعًا أبرزه لهذه الفضيلة تأجرًا واحتسابًا"(٢٥٢)، كذلك قوله في وصف أحوال المصريين:" لا يخلعون لباس الليل تصرفًا فيما يعنيهم، ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم"(٢٥٣)، وكذلك في وصفه القرافة بقوله: "فهي بأسرها روضات

بديعة الإتقان عجيبة البنيان"(٢٥٤). وقوله مستنكرًا صنيع أهل عيذاب مع الحجاج، عند شحنهم في الجلاب:" يقولون: علينا بالألواح، وعلى الحجاج بالأرواح"(٢٥٥). أما **الجناس** فتمثل في قوله: " ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة، وذلك بأنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول، صلى الله عليه وسلم"(٢٥٦). وكذلك إشادته بالقاهرة بقوله: " عرَّفنا الله فيها الخير والخيرة، وتمم علينا صنعه الجميل ...(٢٥٧).

(و) الطباق: كما استخدم الطباق في تشكلاته الفنية بصورة ضئيلة، من مثل قوله في الاختلاف في عدد مساجد الإسكندرية بقوله: " وهو أكثر بلاد الله مساجد، حتى إن تقدير الناس لها يطفف، فمنهم الكثر والمقلل.."(٢٥٨)، وكذلك قوله في وصف روضة قبر الحسين:" وعن يمين الروضة المذكورة وشمالها بيتان من كليهما المدخل.."(٢٥٩) وكذلك في وصف عرض وطول هيكل إخميم(٢٦٠).

(ز) التناص: كما اعتمد ابن جبير في تقديم تشكلاته الفنية لمصر على تضمين التناص من النص القرآني؛ مما يعكس ثقافته الدينة والإسلامية، فضلًا عن الدور الديني له في الوصف الفني للأماكن المصرية المختلفة، وإن جاء بصورة قليلة؛ إذ نجده يصف معرفة الإسكندرية، وشهرتها من منارها من خلال التضمين بقوله: "ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذي قد وضعه الله عز وجل على يدي من سخر لذلك آية للمتوسمين وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا"(٢٦١). فيتضمن الوصف قوله تعالى: ﴿**إن في ذلك لآيات للمتوسمين**﴾(٢٦٢).

كما استنكر صنيع أعوان الزكاة الذين يضربون بمسالهم الطوال؛ لاستكشاف ما في أوعية الحجاج بقوله: "وقد نهى الله عن التجسس"(٢٦٣)

متضمنا قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن إن بعد الظن إثم ولا تجسسوا**﴾(٢٦٤)، وكذلك في إظهار بغضه لبجاة السودان بقوله " وهذه الفرقة من السودان المذكورين فرقة أضل من الأنعام سبيلا وأقل عقولا"(٢٦٥)، متضمنا قوله تعالى في ذم الكافرين ﴿**أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا**﴾(٢٦٦). ومن ثم فقد وظَّف ابن جبير التناص في رحلته ما بين الإعجاب والاستنكار للمدن المصرية وسكانها.

الخاتمة

توصلت الدراسة لجملة من النتائج يمكن ذكرها على النحو الآتي:

١- قدم ابن جبير رؤيته الجغرافية لبعض المدن المصرية بشيء من التفصيل وبعضها، بالإجمال، وتمثلت في المدن واتساعها، والنيل وفيضاناته، وما رافقته من ظروف مناخية على طول الرحلة، وإن كثرت مع الآبار بعذوبتها وملوحتها؛ لحاجة الرحلة إليها في صحراء الصعيد.

٢- قدم ابن جبير رؤيته الوصفية لبيئة مصر المتعددة سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا من خلال عيون السلطة المتمثلة في صلاح الدين الأيوبي، ومآثره في مصر على الرغم من عدم ذكره الالتقاء به.

٣- قدم ابن جبير شخصية صلاح الدين السياسية بشكل متكامل؛ فهو الذي يجمع بين العدل والحنكة، واللين والقوة، والتيسير على المسلمين، والترفيه على رعيته، واهتمامه بالعمران والتشييد، فضلًا عن إكرامه للغرباء والحفاوة بهم، وإن خفي عليه بعض الأمور الإدارية في بعض مناطق الصعيد.

٤- لم يتطرق الكاتب إلى الحروب الصليبية وعلاقة مصر بها على الرغم من حديثه ووصفه المفصل عن صلاح الدين الأيوبي.

٥- أشاد ابن جبير برفاهية المصريين وغناهم، وأمانتهم وشجاعتهم، وعفة نسائهم، والتسامح بين سكانها من مسلمين ونصارى، واستنكر عليهم صنيع عمال الدواوين والضرائب في الإسكندرية، وصعيد مصر من تفتيش، وفرض ضرائب عليهم، وكذلك البجاة سكان عيذاب في تصرفاتهم وعُريهم وعيشتهم التي تشبه عيشة الأنعام.

٦- احتواء مصر العديد من المؤسسات العمرانية والحضارية من مدارس، ومستشفيات، وقصور وقلاع، وحصون ومساجد وكنائس، وإن ربطها جلها بالسلطان صلاح الدين.

٧- اعتماد مصر على التجارة بصادراتها وواردتها خاصة في صعيد مصر، وبالتحديد في مدينتي قوص وعيذاب.

٨- لم يهتم ابن جبير كثيرًا بذكر تفاصيل المكان في مصر، ويعتمد على بعض الجمل التي تعينه على الإجمال، من مثل الخبر عنه يضيق وغيرها؛ وربما يرجع ذلك لاهتمامه بالهدف الأساس وهو الحج.

٩- تشكلت ملامح الحياة المصرية في العصور الوسطى وتمثلت جغرافيا في اتساع مدنها، وروعة تخطيطها، وامتلاكها الموارد الطبيعية المتمثلة في النيل والآبار المتعددة، وكذلك قيادتها الحكيمة لحاكمها صلاح الدين؛ الذي يعرف سبيل العدل والتعمير والقوة سياسيًا، ورفاهية المصريين وترفهم اجتماعيًا، وكثرة أسواقهم، وتجارتهم، وخيراتهم من أقماح، ونخيل، وفلفل اقتصاديًا، فضلًا عن عمرانها واحتوائها العديد من معالم الحضارة القديمة والحديثة، على حد سواء.

١٠- ربط الكاتب بين مصر وتاريخيتها؛ الأمر الذي أفصح عن حضارة مصر المتعددة سواء الفرعونية أو الإغريقية، أو الإسلامية، وإن جاءت متمثلة في بعض التلميحات الخالية من الوقائع والأحداث.

١١- قدم الكاتب في تجليات مصر قيمتها الدينية بعدِّها مهبط للأنبياء، حيث إقامة الخليل إبراهيم ويوسف الصديق، وميلاد موسى عليهم السلام،

وكـذلك قبـور آل البيـت، والصـحابة والتـابعين، والعلمـاء والزهـاد، وكثـرة المساجد، والكنائس.

١٢- اعتمد ابن جبير في تشكلات مصر على التشكلات السردية؛ التي تمثلت في الأسلوب القصصي والحواري، والأسلوب الوصفي، فضلًا عن الفضاء المكاني لمصر، ومدنها المختلفة. وإن كثر عنده أسلوب السرد الوصفي؛ الذي يخلو من الصور الفنية؛ لطبيعة الرحلة، وجدية هدفها المتمثل في زيارة بيت الله الحرام. وندر فيها الأسلوب الحواري الصريح، لغلبة الوصف على معطيات الرحلة.

١٣- تمثل المكان المغلق في رحلة الكاتب في المنشئات الحضارية من مساجد، ومدارس، وفنادق، وتجلى المكان المفتوح في الطرق، والأسواق، وغيرها.

الهوامش

(١) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي(عصر الدول والإمارات، الأندلس)، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٩، ص٢٢٦،٢٢٧.

(٢) آمنة يوسف: تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، ط١، سوريا، دار الحوار للنشر والتوزيع، ١٩٩٧، ص ٢٨.

(٣) عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥، ص٧.

(٤) ينظر: ياسين النصير: الرواية والمكان، ج٢، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦، ص ١٨.

(٥) نبيل راغب: النقد الفني، القاهرة، مكتبة مصر، ص١٥.

(٦) سيسل دي لويس: الصورة الشعرية، ترجمة أحمد ناصف الجنابي، مطلعة بغداد، ١٩٨٢، ص٢٣.

(٧) ينظر: إحسان عباس: فن الشعر، ط٥، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٥، ص٢٣٨.

(٨) سعيد يقطين: خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية، مجلة علامات في النقد، جدة، النادي الأدبي، ج٩، مجلد٣، ١٩٩٣، ص١٧١:١٦٥.

(٩) انظر: لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة من أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، ط١، ج٢، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٤، ص٢٣٩:٢٣٠. وانظر: المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، ج٢، بيروت، دار صادر، ١٩٨٨، ص٣٨١: ٣٨٥.

(١٠) نوال عبد الرحمن الشوابكة: أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري،ط١، عمان، دار المأمون، ٢٠٠٨ ص٦٢.

(١١) فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ط٢، القاهرة، الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٢، ص٢٣.

(١٢) يوري لوتمان: مشكلة المكان الفني(بحث منشور ضمن سلسلة أعمال بعنوان جماليات المكان)، ترجمة: سيزا قاسم، ط٢، الدار البيضاء، عيون، ١٩٨٨، ص٦٣.

(١٣) الإسكندرية: ميناء مصر الأول، وقد شغلت وظيفة العاصمة لفترة طويلة تمتد من إنشائها في عام ٣٣٢ قبل الميلاد، وحتى عام ٦٤١م تقريبًا أي ما يقرب من ألف عام. السيد السيد الحسيني: موسوعة مصر الحديثة، البيئة الجغرافية، المجلد الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب. ص٩٤.

(١٤) ابن جبير: رحلة ابن جبير (تذكرة بالأخبار، عن اتفاقات الأسفار)، بيروت، دار صادر، ص١٤.

(١٥) المصدر السابق: ص١٨.

(١٦) نفسه: ص٢٩.

(١٧) المنيا: هي مدينة شهيرة من أعظم مدن الصعيد، كانت تسمى في الأزمان العتيقة طمون، أو أطمون، وهي كلمة قبطية معناها الدير، ثم عرفت بمنية الخصيب، أو ابن خصيب نسبة للخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر، من جهة هارون الرشيد. محمد أمين فكري: جغرافية مصر، ط١، مطبعة وادي النيل، ١٣٩٦هـ، ص١٢٣.

(١٨) ابن جبير: المصدر السابق، ص٣٣.

(١٩) أسيوط: مدينة عظيمة في غربي النيل على نحو ١٢٠٠ منه، واقعة في آخر المزارع على طرف حاجر الجبل، وهي أعظم مدينة في الصعيد بها أبنية فاخرة وقصور مشيدة، ومواقع للتجارة: محمد أمين فكري، المرجع السابق، ص١٣٣.

(٢٠) ابن جبير: رحلته، ص٣٥.

(٢١) نفسه: ص٤٠.

(٢٢) الحاجر: هو حاجر الهضبة المشرف على السهل الهضبي، وهي منطقة بعيدة عن مفيض الأودية، وكان يسهل حفر الآبار فيها. انظر: عبد العال عبد المنعم محمد الشامي: دراسات في جغرافية مصر التاريخية(طريق قوص_عيذاب) خلال العصر الوسيط، القاهرة، ١٩٩٨، ص١٥.

(٢٣) انظر: ابن جبير، ص٤١.

(٢٤) انظر: نفسه، ص٤٢.

(٢٥) نفسه: ص٤٣.

(٢٦) نفسه: ص٤٣.

(٢٧) نفسه: ص٤٥.

(٢٨) انظر: نفسه، ص٤٤.

(٢٩) نفسه: ص٤٥:٤٤.

(٣٠) عيذاب: ميناء على ساحل البحر الأحمر، تعدي منه المراكب إلى جدة. محمد أمين فكري، المرجع السابق، ص٣. وإن كانت الآن خرائب تقع على الشمال من حلايب بنحو ٢٠ كم، إلا أنها كانت في العصر الوسيط مرفأ على سيف البحر الأحمر، وقد كانت من أهم الموانى التجارية لمصر على البحر الأحمر بحكم مزايا موقعها وموضعها؛ مما أدى إلى قيامها بدور مهم في التجارة العالمية العابرة بين المشرق والمغرب، فضلًا عن كونها الميناء الرئيس لاستقبال الحجاج لسهولة اجتياز ميناء جدة من خلاله. انظر: عبد العال عبد المنعم محمد الشامي: المرجع السابق، ص٢٨. وقد نافس ميناء عيذاب موانى الخليج الفارسي في عهد الدولة الفاطمية، وبسبب سيطرة الصليبين على أيلة، وغلق الطريق أمام العرب أصبح لها القيمة الكبرى من بين الموانى، وإن تناقصت بعد طردهم، وتأمين طريق سيناء عام ١٢٦٧م. انظر: محمد رجائي الطحلاوي: عيذاب (دراسة تاريخية وجغرافية جيولوجية لثغر عيذاب على البحر الأحمر)، دار الكتب الحديث، ٢٠١٠، ص٥، ١٨.

(٣١) انظر: ابن جبير، رحلته، ص٤٥.

(٣٢) انظر: نفسه، ص٤٧:٤٦.

(٣٣) صلاح الدين: هو صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولد عام اثنين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت، وكان والده أيوب بن شاذي واليًا بها، انتقل إلى الموصل وبها ترعرع، ثم إلى برفقة والده إلى بعلبك في الشام، فقربه الملك العادل نور الدين زنكي وعول عليه،

وترأس الشرطة بأمره، فساد الأمن والأمان في ربوعها، واستطاع برفقة عمه أسد الدين شيركوه القضاء على الدولة الفاطمية، إثر نجدة شاور السعدي بنور الدين زنكي، عام ٥٦٤هـ، وكان حسن العقيدة، عادلًا رؤوفًا رحيمًا، ناصرًا للضعيف، كان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء، والقضاة والعلماء، ويفتح بابه للمتحاكمين، ما استغاث إليه أحد إلا وقد سمع قضيته، وكشف ظلامته، واعتنى بقضيته، كان يطوف حول العدو مرة أو مرتين في كل يوم إذا كان قريبًا منه، وكان يطوف بين الصفين في شدة الحرب، وكان يشارف العدو ويجاوره، ولا يستكثر عدده، ولا يستعظم أمره. توفي عام ٥٨٩هـ. انظر: أبو المحاسن بهاء الدين بن شداد، سيرة صلاح الدين المسمى النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ص٩:٢٥ وينظر: عبد الله ناصح علوان: صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبين، دار السلام، ص١١:٢٥.

(٣٤) ابن جبير: المصدر السابق، ص١٤.

(٣٥) نفسه: ص١٥.

(٣٦) انظر: نفسه، ص ١٦.

(٣٧) نفسه: ص٢٦.

(٣٨) نفسه: ص٢٦.

(٣٩) انظر: نفسه، ص٢٧.

(٤٠) نفسه: ص٣١،٣٠.

(٤١) انظر: نفسه، ص١٣.

(٤٢) انظر: نفسه، ص٣٨.

(٤٣) نفسه: ص١٦.

(٤٤) انظر: نفسه، ص٢٩.

(٤٥) نفسه: ص١٧.

(٤٦) نفسه: ص٣١.

(٤٧) نفسه: ص١٤.

(٤٨) طندتة: هي مدينة طنطا، من المدن العريقة في الجاهلية والإسلام، وازدادت شهرتها بوجود القطب الشهير سيدي أحمد البدوي بها، كانت في بدايتها كثيرة الرطوبة والأمراض؛ لولا تدخل أبناء محمد علي الذين قاموا بتوسعتها وتنظيمها. محمد أمين فكري: المرجع السابق، ص٥٣.

(٤٩) ابن جبير: رحلته، ص١٨.

(٥٠) انظر: نفسه، ص٢٤،٢٥.

(٥١) انظر: نفسه، ص٢٠.

(٥٢) نفسه.

(٥٣) نجم الدين الخبوشاني: هو أبو البركات محمد بن موفق بن سعيد الخبوشاني الشافعي الصوفي، ولد سنة عشر وخمس مئة، قدم مصر فأقام بمسجدٍ مدة ثم بتربة الشافعي، وتبتل لإنشائها، ودرس بها، وأفتى وصنف، وخبشان من قرى نيسابور، ذكر في وفيات الأعيان أن السلطان صلاح الدين كان يقربه، ويعتقد فيه، وشهد له الجميع بفضله، ودينه وإسلامه، كان قشفًا في العيش، يابسًا في الدين، مات في ذي القعدة سنة سبع وثمانين وخمس مئة ودفن في الكساء. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ط١، ج٢١، تحقيق: بشار عواد معروف، محيي هلال السرحان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤، ص٢٠٧:٢٠٤. وانظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢٣٩/٤، المنذري: التكملة ١٤٥/١، ابن كثير: البداية ٣٤٧/١٢، السيوطي: حسن المحاضرة ١٨٩/١.

(٥٤) ابن جبير: رحلته، المصدر السابق، ص٢٣.

(٥٥) انظر: نفسه، ص٢٧.

(٥٦) نفسه: ص٢٩.

(٥٧) قرآن كريم: سورة الأحزاب، آية (٣٣).

(٥٨) ابن جبير: رحلته، ص٤٠.

(٥٩) نفسه: ص٤٤،٤٣.

(٦٠) نفسه: انظر: ص٤٥.

(٦١) نفسه: ص٤٦.

(٦٢) نفسه: ص٤٨،٤٧.

(٦٣) البجاة: اختلف في أحوالهم؛ فالقزويني يراهم صنف من الحبشة، ويصفهم ابن الوردي بالبدو شديدي السواد، عراة الأبدان، وليسوا بعرب، يتميزون بالكرم والمبالغة في الضيافة، متشددون في الالتزام بعهودهم. محمد رجائي الطحلاوي، عيذاب، مرجع السابق ص١٣.

(٦٤) ابن جبير: رحلته، نفسه: ص٤٩.

(٦٥) نفسه.

(٦٦) نفسه: ص١٤.

(٦٧) المنار: تهدم إثر زلزال تعرضت له الإسكندرية في عام ١٣٧٥هـ. السيد السيد الحسيني: موسعة مصر الحديثة (البيئة الجغرافية)، المجلد الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٩٤.

(٦٨) قرآن كريم: سورة الحجر، آية (٧٥).

(٦٩) ابن جبير: رحلته، ص١٥،١٤.

(٧٠) نفسه: ص١٥.

(٧١) نفسه: ص١٧.

(٧٢) نفسه: ص١٩.

(٧٣) نفسه: ص٢٠،١٩.

(٧٤) القلعة: معروفة على قطعة من الجبل، تتصل بجبل المقطم، وهي تشرف على القاهرة ومصر والقرافة الكبرى. محمد أمين فكري: جغرافية مصر، المرجع السابق، ص٢٤٨.

(٧٥) ابن جبير: رحلته، ص٢٥.

(٧٦) انظر: نفسه، ص٢٦.

(٧٧) نفسه: ص٢٨.

(٧٨) انظر: نفسه، ص٢٨،٢٩.

(٧٩) انظر: نفسه: ص٣٦:٣٧، ٤٠.

(٨٠) قليوب: تقع شمال القاهرة، أرضها شبه مثلث، يفصلها عن مدينة الشرقية بحر مويس. محمد أمين فكري: المرجع السابق، ص٨.

(٨١) انظر: ابن جبير، رحلته، ص١٨.

(٨٢) انظر: نفسه، ص١٩، ص٢٤.

(٨٣) نفسه: ص٢٢،٢٣.

(٨٤) انظر: نفسه، ص٢٦.

(٨٥) انظر: نفسه، ص٣٢.

(٨٦) انظر: نفسه، ص٤٠.

(٨٧) نفسه.

(٨٨) انظر: نفسه، ص٣٩،٤٠.

(٨٩) نفسه: ص٢٦.

(٩٠) انظر: نفسه، ص١٣.

(٩١) نفسه: ص٣٠.

(٩٢) نفسه: ص٢٤.

(٩٣) انظر: نفسه، ص٢٤.

(٩٤) نفسه: ص٢٩.

(٩٥) نفسه: ص٣٠.

(٩٦) نفسه: ص٣٥.

(٩٧) انظر: نفسه، ص٤٠.

(٩٨) نفسه: ص٤١،٤٠.

(٩٩) المبرز: موضع قبلي مدينة قوص من الجهة الجنوبية، وعلى مقربة منها، اشتهر بالنخيل. عبد العال عبد المنعم محمد الشامي: دراسات في جغرافية مصر التاريخية، المرجع السابق، ص١٥.

(١٠٠) انظر: ابن جبير، رحلته، ص٤١.

(١٠١) نفسه: ص٤٢.

(١٠٢) نفسه: ص٤٣.

(١٠٣) نفسه: ص٤٥.

(١٠٤) نفسه: ص٤٦.

(١٠٥) محمد جبريل: مصدر المكان دراسة في القصة والرواية، ط٢، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مصر، ٢٠٠٠، ص٧.

(١٠٦) انظر: محمد بدوي: الرواية الجديدة في مصر دراسة في التشكيل والأيديولوجيا، بيروت، المؤسسة الجامعية، ١٩٩٣، ص١٣٤.

(١٠٧) انظر: سيزا قاسم، بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤، ص١١٩،١١٨.

(١٠٨) ابن جبير: رحلته، ص١٥.

(١٠٩) نفسه: ص١٧.

(١١٠) انظر: نفسه، ص٢٦.

(١١١) نفسه: ص٢٧.

(١١٢) انظر: نفسه، ص٣٠.

(١١٣) نفسه: ص٣١.

(١١٤) نفسه: ص٢٣.

(١١٥) لؤلؤ: كان أرمنيًا من غلمان العاضد، خدم مع صلاح الدين فعرف بالشجاعة والإقدام، كما عرف بالخير والإنفاق خاصة في أخريات حياته فترة قحط مصر، كان المندوب لحرب فرنج الكرك الذي ساروا لأخذ طيبة، أو فرنج سواهم، ساروا في البحر المالح، فلم يسر لؤلؤ إلا ومعه قيود بعددهم، فأدركه عند الفلحتين فسلموا نفوسهم، فقيدهم وكانوا أكثر من ثلاث مائة مقاتل، وأقبل بهم إلى القاهرة.: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٢١، ص٢٨٥:٢٨٤. وينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/٨٤٥.

(١١٦) ابن جبير: رحلته، ص٣٥،٣٤.

(١١٧) نفسه: ينظر: ص٤٥.

(١١٨) نفسه: ص١٣.

(١١٩) نفسه: ص٣٨.

(١٢٠) نفسه: ص١٤.

(١٢١) نفسه: ص٢٨.

(١٢٢) ينظر: أحمد فخري: الأهرامات المصرية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣، فقد أشار إلى بناء خوفو وخفرع ومنكاوو_رع لها. وينظر: انطوان بطرس: لغز الهرم الكبير، بيروت، لبنان، رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٨، ص١١، ٤٧،٤٨. الذي قدم فيها تسعة معتقدات حول الأهرامات، وإجزامه بفرعونيتها.

(١٢٣) ابن جبير: رحلته، ص٢٩.

(١٢٤) انظر: نفسه، ص٣٢.

(١٢٥) نفسه: ص٣٢.

(١٢٦) قرآن كريم: سورة القصص، أية(٧).

(١٢٧) انظر: ابن جبير، رحلته، ص٣٣.

(١٢٨) انظر: نفسه، ص٣٣ وهامشها.

(١٢٩) انظر: نفسه، ص٣٤،٣٥.

(١٣٠) نفسه: ص٤١،٤٢.

(١٣١) انظر: نفسه، ص٤٢،٤٣.

(١٣٢) انظر: نفسه، ص١٧،، ص٢٦.

(١٣٣) انظر: نفسه، ١٩:٢٤.

(١٣٤) ابن سعيد الزهري: كتاب الطبقات الكبير(الطبقة الأولى في البدريين من المهاجرين والأنصار)، ط١، تحقيق: علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي، الجزء الثالث،٢٠٠١، ص٥٤٦،٥٤٥.

(١٣٥) نفسه: ص١٥٥.

(١٣٦) ابن جبير: رحلته، ص٣٠.

(١٣٧) انظر: نفسه: ص٣٦،٣٧.

(١٣٨) انظر: نفسه: ص١٦.

(١٣٩) انظر: نفسه، ص٣٢،٣٣.

(١٤٠) نفسه: ص٢٣.

(١٤١) نفسه: ص٣٠.

(١٤٢) قال أحمد بن إسحاق الهمذاني: وبمصر حائط العجوز على شاطئ النيل، بنته عجوز كانت في أول الدهر ذات مال، وكان لها ولد واحد؛ فأكله السبع فقالت: لأمنعن السباع أن ترد النيل، فبنت ذلك الحائط حتى منعت السباع أن تصل إلى النيل، قال: ويقال إن ذلك الحائط كان مطلسما، وكان فيه تماثيل كل إقليم على هيئته، ووزنه وزيه، وصوره والدواب والسلاح التي فيه وطريق كل إقليم إلى مصر، قال: ويقال إن ذلك الحائط بني ليكون حاجزا بين الصعيد والنوبة لأنهم؛ كانوا يغيرون على أهل الصعيد، فلا يشعرون بهم حتى هجموا على بلادهم، فبني ذلك الحائط لذلك السبب، وقال بعض أهل العلم: أمر بعض ملوك مصر ببناء الحائط مما يلي البر، طوله ثلاثمائة فرسخ، وقيل: ثلاثون يوما ما بين الفرما إلى أسوان، ليكون حاجزا بينهم وبين الحبشة، وقال القاضي أبو عبد الله القضاعي: حائط العجوز من العريش إلى أسوان يحيط بأرض مصر شرقًا وغربًا، وقال آخرون: لما أغرق الله فرعون وقومه بقيت مصر، وليس فيها من أشراف أهلها أحد، ولم يبق إلا العبيد والأجراء والنساء، فأعظم أشراف النساء أن يولين امرأة منهن يقال لها دلوكة بنت ريا، وكان لها عقل ومعروفة وتجارب، وكانت من أشرف بيت فيهن، وهي يومئذ ابنة مائة سنة، فملكوها فخافت أن يغزوها ملوك الأرض إذا علموا قلة رجالها، فجمعت نساء الاشراف وقالت لهن: إن بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد، وقد هلك أكابرنا ورجالنا، وقد ذهب السحرة الذين كنا نصول بهم، وقد رأيت أن أبني حائطا أحدق به جميع بلادنا، فصوبن رأيها، فبنت على النيل بناء أحاطت به على جميع ديار مصر؛ المزارع والمدائن والقرى، وجعلت دونه خليجًا يجري فيه الماء، وجعلت عليه القناطر، وجعلت فيه محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال مسلحًا ومحرسًا، وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل، وجعلت في كل محرس رجالًا، وأجرت عليهم الأرزاق، وأمرتهم أن لا يغفلوا ومتى، رأوا أمرًا يخافونه؛ ضرب بعضهم إلى بعض الأجراس، وإن كان ليلًا أشعلوا النيران على الشرف؛ فيأتي الخبر في أسرع وقت، وكان الفراغ منه في ستة أشهر. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، بيروت، دار صادر، ص٢٠٩

(١٤٣) انظر: ابن جبير، رحلته، هامش ص٣٤،٣٣.

(١٤٤) نفسه: ص٤٩.

(١٤٥) حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ط٢، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨٣، ص٨،٩.

(١٤٦) سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة قديمًا وحديثًا، القاهرة، مكتبة غريب، ص٨.

(١٤٧) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، ج١، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص٣٠١.

(١٤٨) انظر: ابن جبير، رحلته، الصفحات١٥، ١٧،١٨، ١٩،٢٠.

(١٤٩) نفسه: ص٣١.

(١٥٠) نفسه: ص٤٠.

(١٥١) نفسه: ص١٩.

(١٥٢) نفسه: ص١٣.

(١٥٣) نفسه: ص١٧.

(١٥٤) نفسه: ص٢٦.

(١٥٥) نفسه: ص٣٤.

(١٥٦) لطيف زيتوني: السيمولوجيا وأدب الرحلات، مجلة عالم الفكر، الكويت، مجلد٢٤، العدد٣، ١٩٩٦، ص٢٥٧.

(١٥٧) عبد الرحيم مودن: أدبية الرحلة، ط١، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٩٦، ص٢٨.

(١٥٨) حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي،ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ١٩٩٠، ص١٧٦.

(١٥٩) ابن جبير: رحلته، ص٢٤،٢٥.

(١٦٠) سيزا قاسم: مرجع سابق، ص١٢٣،١٢٤.

(١٦١) نفسه: ص١٢٣.

(١٦٢) ابن جبير: رحلته، ص٢٦.

(١٦٣) نفسه: ص١٩.

(١٦٤) نفسه: ص٢٨.

(١٦٥) نفسه: ص٣٥.

(١٦٦) حسن بحراوي: مرجع سابق، ص١٧٦.

(١٦٧) ابن جبير: رحلته، ص٤١،٤٠.

(١٦٨) نفسه: ص٤٥.

(١٦٩) نفسه: ص٤٣.

(١٧٠) نفسه: ص١٤.

(١٧١) غاستون باشلار: جماليات المكان، ط٦، ترجمة: غالب هلسا، بيروت، المؤسسة الجامعية، ٢٠٠٦، ص٦.

(١٧٢) أندري لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، ط١، ترجمة: خليل أحمد خليل، بيروت، منشورات عويدات، ج١، ١٩٩٦، ص٥١.

(١٧٣) ياسين النصير: إشكالية المكان في النص الأدبي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦، صـ٣٩٦،٣٩٥.

(١٧٤) ينظر: سمير المرزوقي و جميل شاكر: مدخل إلى نظرية القصة تحليلًا وتطبيقًا، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٦، صـ٥٩،٥٨

(١٧٥) عمر محمد عبد الواحد: شعرية السرد(تحليل الخطاب السردي في مقامات الهمذاني)، ط١، المنيا، دار الهدى، ٢٠٠٥، ص٨٧.

(١٧٦) ابن جبير: رحلته، ص٧.

(١٧٧) عمر محمد عبد الواحد: مرجع سابق، ص٨٧،٨٦

(١٧٨) نفسه: ص٩٩.

(١٧٩) ابن جبير، رحلته، ص١٨.

(١٨٠) اللقيطة: تقع شرق مدينة قوص، كانت أهم المحطات لنزول القوافل بعد خروجها من قوص، وتربط بين قوص والقصير في منطقة يجري بها العديد من الأودية، مثل وادي الحمامات، ووادي العطواني. فهذه المنطقة غنية بالماء الباطنية؛ مما ساعد على استمرار تغذية هذه البئر لقرون عديدة حتى الآن. ينظر: عبد الغني عبد العزيز زيادة: ميناء عيذاب في العصر الوسيط، القاهرة، ٢٠١٤، ص١٩.

(١٨١) ابن جبير: رحلته، المصدر السابق، ص٤١.

(١٨٢) أوريدة عبود: المكان في القصة القصيرة الجزائرية الثورية دراسة بنيوية لنفوس ثائرة، الجزائر، دار الأمل للطباعة، ص٥١.

(١٨٣) ابن جبير: رحلته، ص١٨.

(١٨٤) نفسه: ص١٤.

(١٨٥) نفسه: ص١٨.

(١٨٦) انظر: نفسه، ص٢٩.

(١٨٧) نفسه: ص٣٢.

(١٨٨) نفسه: ص٣٥

(١٨٩) نفسه: ص٤٠.

(١٩٠) انظر: نفسه، ص٢٩.

(١٩١) نفسه: ص٣٢.

(١٩٢) بحر القلزم: هو بحر السويس، بحر النعم: هو البحر الأحمر. انظر: محمد رجائي، مرجع سابق، ص٤، ١٦.

(١٩٣) انظر: ابن جبير، رحلته، ص٣٤.

(١٩٤) نفسه: ص٤٠.

(١٩٥) نفسه: ص٤٦.

(١٩٦) انظر: نفسه، ص٤٨.

(١٩٧) اللقيطة: منطقة صحراوية ما بين قوص ووادي حميثرا. انظر: محمد رجائي: مرجع سابق، ص١٦.

(١٩٨) ابن جبير: رحلته، ص٤١.

(١٩٩) انظر: نفسه، ص٤٢.

(٢٠٠) انظر: نفسه، ص٤٤.

(٢٠١) نفسه: ص١٨.

(٢٠٢) نفسه: ص٣٣.

(٢٠٣) نفسه: ص٤١.

(٢٠٤) نفسه: ص٣٣.

(٢٠٥) نفسه: ص١٥.

(٢٠٦) انظر: نفسه، ص١٧.

(٢٠٧) نفسه: ص١٩.

(٢٠٨) انظر: نفسه، ص٢٦.

(٢٠٩) نفسه: ص٢٩.

(٢١٠) انظر: نفسه، ص١٩.

(٢١١) انظر: نفسه، ص٢١،٢٢.

(٢١٢) نفسه: ص٢٤.

(٢١٣) نفسه: ص١٢.

(٢١٤) نفسه: ص١٩.

(٢١٥) انظر: نفسه، ص٤١.

(٢١٦) انظر: نفسه، ص٢٣،٢٢.

(٢١٧) انظر: نفسه، ص١٥.

(٢١٨) نفسه: ص٢٧.

(٢١٩) نفسه: ص١٩.

(٢٢٠) انظر: نفسه، ص٢٣.

(٢٢١) انظر: نفسه، ص٤٥.

(٢٢٢) انظر: نفسه، ص١٥.

(٢٢٣) انظر: نفسه، ص٢٦.

(٢٢٤) دنقاش: هو بئر مشهور على طريق قوص: انظر: محمد رجائي، مرجع سابق، ص١٦.

(٢٢٥) ابن جبير: رحلته، ص٤٢.

(٢٢٦) نفسه: ص٤٤.

(٢٢٧) انظر: نفسه، ص٤٥.

(٢٢٨) نفسه: ص٤٣.

(٢٢٩) انظر: نفسه، ص٤٥،٤٤.

(٢٣٠) انظر: نفسه، ص٣٧،٣٦.

(٢٣١) نفسه: ص٣٦.

(٢٣٢) انظر: نفسه، ص٣٢.

(٢٣٣) نفسه: ص١٥،١٤.

(٢٣٤) انظر: نفسه، ص٢٥.

(٢٣٥) انظر: نفسه، ص٣٥.

(٢٣٦) انظر: نفسه، ص٤٠.

(٢٣٧) كراتشوفسكي: مرجع سابق، ص٣٠١.

(٢٣٨) انظر: عثمان موافي: لون من أدب الرحلات، ط١، الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٣، ص٣٣.

(٢٣٩) ابن جبير: رحلته، ص١٩.

(٢٤٠) انظر: نفسه، ص٢٠.

(٢٤١) نفسه: ص٢٧.

(٢٤٢) انظر: نفسه، ص٣٦.

(٢٤٣) انظر: نفسه، ص١٧.

(٢٤٤) نفسه: ص٣٧.

(٢٤٥) انظر: نفسه، ص٣٨.

(٢٤٦) نفسه: ص٤١.

(٢٤٧) نفسه: ص١٨.

(٢٤٨) نفسه: ص٤٤.

(٢٤٩) نفسه: ص١٤.

(٢٥٠) انظر: نفسه، ص١٨.

(٢٥١) نفسه: ص٢٥.

(٢٥٢) نفسه: ص٢٦.

(٢٥٣) نفسه: ص٣١.

(٢٥٤) نفسه: ص٢٠.

(٢٥٥) نفسه: ص٤٨.

(٢٥٦) نفسه: ص٣٤.

(٢٥٧) نفسه: ص١٨.

(٢٥٨) نفسه: ص١٧.

(٢٥٩) نفسه: ص١٩.

(٢٦٠) انظر: نفسه، ص٣٦.

(٢٦١) نفسه: ص١٤.

(٢٦٢) قرآن كريم: سورة الحجر، آية (٧٥).

(٢٦٣) ابن جبير: رحلته، ص٣٩.

(٢٦٤) قرآن كريم: سورة الحجرات: آية(١٢).

(٢٦٥) ابن جبير: رحلته، ص٤٨،٤٩.

(٢٦٦) قرآن كريم: سورة الفرقان، آية(٤٤).

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

- آمنة يوسف: تقنيات السرد في النظرية والتطبيق، ط١، سوريا، دار الحوار للنشر والتوزيع، ١٩٩٧.

- إحسان عباس: فن الشعر، ط٥، بيروت، دار الثقافة، ١٩٧٥.

- أحمد فخري: الأهرامات المصرية، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣.

- أندري لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، ط١، ترجمة: خليل أحمد خليل، بيروت، منشورات عويدات، ج١، ١٩٩٦.

- انطوان بطرس: لغز الهرم الكبير، بيروت، لبنان، رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٨.

- أوريدة عبود: المكان في القصة القصيرة الجزائرية الثورية دراسة بنيوية لنفوس ثائرة، الجزائر، دار الأمل للطباعة.

- أبو المحاسن بهاء الدين بن شداد، سيرة صلاح الدين المسمى النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، القاهرة، مؤسسة هنداوي.

- ابن جبير: رحلة ابن جبير (تذكرة بالأخبار، عن اتفاقات الأسفار)، بيروت، دار صادر.

- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي،ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ١٩٩٠.

– حسـني محمـود حسـين: أدب الرحلـة عنـد العـرب، ط٢، بيـروت، دار الأندلس، ١٩٨٣.

– ابـن خلكـان: وفيـات الأعيـان، تحقيـق: إحسـان عبـاس، بيـروت،ج٤، ١٩٧٨.

– الذهبي: سير أعلام النبلاء، ط١، تحقيق: بشار عواد معروف، محيي هلال السرحان، بيروت، مؤسسة الرسالة، ج٢١١٩٨٤.

– ابن سعيد الزهري: كتاب الطبقات الكبير(الطبقة الأولى في البدريين من المهاجرين والأنصار)، ط١، تحقيق: علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي، ج٣،٢٠٠١.

– سعيد يقطين: خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية، مجلة علامات في النقد، جدة، النادي الأدبي، ج٩، مجلد٣، ١٩٩٣.

– سمير المرزوقي و جميل شاكر: مدخل إلى نظرية القصة تحليلًا وتطبيقًا، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٦.

– سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة قديمًا وحديثًا، القاهرة، مكتبة غريب.

– السيد السيد الحسيني: موسوعة مصر الحديثة، البيئة الجغرافية، المجلد ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

– سيزا قاسم، بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤.

– سيسل دي لويس: الصورة الشعرية، ترجمة أحمد ناصف الجنابي، مطلعة بغداد، ١٩٨٢.

– السيوطي: حسن المحاضرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزء الأول، ١٩٦٧.

– شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي(عصر الدول والإمارات، الأندلس)، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٩.

– عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ط١، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥.

– عبد الله ناصح علوان: صلاح الدين الأيوبي بطل حطين ومحرر القدس من الصليبين، دار السلام.

– عبد الرحيم مودن: أدبية الرحلة، ط١، الدار البيضاء، دار الثقافة، ١٩٩٦.

– عبد العال عبد المنعم محمد الشامي: دراسات في جغرافية مصر التاريخية(طريق قوص_عيذاب) خلال العصر الوسيط، القاهرة، ١٩٩٨.

– عبد الغني عبد العزيز زيادة: ميناء عيذاب في العصر الوسيط، القاهرة ٢٠١٤.

– عثمان موافي: لون من أدب الرحلات، ط١، الإسكندرية، مؤسسة الثقافة الجامعية، ١٩٧٣.

– عمر محمد عبد الواحد: شعرية السرد(تحليل الخطاب السردي في مقامات الهمذاني)، ط١، المنيا، دار الهدى، ٢٠٠٥.

– فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ط٢، القاهرة، الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٢.

– ابن كثير: البداية، بيروت، مكتبة المعارف، الجزء ١٢، ١٩٩٠.

– كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، ج١، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

– لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة من أخبار غرناطة، ط١، تحقيق: محمد عبد الله عنان، ج٢، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٩٧٤.

– لطيف زيتوني: السيمولوجيا وأدب الرحلات، الكويت، مجلة عالم الفكر، مجلد٢٤، العدد٣، ١٩٩٦.

– محمد أمين فكري: جغرافية مصر، ط١، مطبعة وادي النيل، ١٣٩٦هـ.

– محمد بدوي: الرواية الجديدة في مصر دراسة في التشكيل والأيديولوجيا، بيروت، المؤسسة الجامعية، ١٩٩٣.

– محمد جبريل: مصدر المكان دراسة في القصة والرواية، ط٢، مصر، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ٢٠٠٠.

– محمد رجائي الطحلاوي: عيذاب (دراسة تاريخية وجغرافية جيولوجية لثغر عيذاب على البحر الأحمر)، دار الكتب الحديث، ٢٠١٠.

– المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، ، بيروت، دار صادر، ج٢، ١٩٨٨.

– المنذري: التكملة، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت، مؤسسة الرسالة، الجزء الأول، ١٩٦٧.

– نبيل راغب: النقد الفني، القاهرة، مكتبة مصر.

– نوال عبد الرحمن الشوابكة: أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط١، عمان، دار المأمون، ٢٠٠٨.

– ياسين النصير:

– إشكالية المكان في النص الأدبي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦.

– الرواية والمكان، ج٢، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦.

– ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، بيروت، دار صادر.

– يوري لوتمان: مشكلة المكان الفني(بحث منشور ضمن سلسلة أعمال يعنوان جماليات المكان)، ط٢، ترجمة: سيزا قاسم، الدار البيضاء، عيون، ١٩٨٨.